الاتجاهات الحشوية في الفكر الإسلامي

عرض ونقد

د. أحمد قوشتي عبد الرحيم

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هداه ، وبعد : فكثيرا ما استوقفني – وربما استوقف آخرين غيري – مصطلح ، أو لقب لفرقة يتردد كثيرا في كتب علم الكلام ، ومصنفات الفرق المختلفة ، ويشوبه قدر غير قليل من الإشكال والغموض ، ألا وهو مصطلح الحشوية .

ومبعث الإشكال في هذا اللقب أن العادة قد جرت فيما يتعلق بالفرق المختلفة التي ظهرت عبر تاريخ المسلمين الطويل أن يكون لها رأس أو شخصية مؤسسة ، قامت بعبء إنشاء هذا المذهب ، وصياغة أفكاره ، ووضع أسسه العامة والدعوة إليها ، إما بالتصنيف والكتابة ، وإما بالمشافهة والمناظرة ، ومحاولة اجتذاب الأنصار والأتباع .

وفي مراحل لاحقة تظهر شخصيات أخرى مخلصة لهذا المذهب ، لا تفتأ تصنف الكتب المؤيدة له ، وقد تطور بعض أفكاره ، وربما غيرت شطرا كبيرا منها ، وإن ظلت محتفظة بالأصول الرئيسة للمذهب ، والقواسم المشتركة بين سائر معتنقيه الأوائل والأواخر .

ووفقا لهذا التصور نجد أن اسم الفرقة يصدق على مجموع ما ذكرناه من الشخصية المؤسسة والأتباع المخلصين ، والمصنفات المختلفة ، ومجموعة الأصول المنهجية ، والآراء التفصيلية التي تميز تلك الفرقة عن غيرها من الفرق الأخرى .

لكن هذه الأمور التي ذكرناها لا تكاد تنطبق على الحشوية بحال ، فليس هناك – فيما وقفت عليه من مصادر – شخصية أو مؤسس يمكن القطع بأنه أول من ابتكر آراء هذا المذهب الحشوي ، وليس هناك اتفاق على معنى الاسم نفسه ، ولا على ضبطه لغة ، أو تحديد معناه اصطلاحا ، بل الأمر كما قال ابن الوزير اليمني " فأكثر عامّة المسلمين لا يدرون من الحشويّة "[١] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية " فأما لفظ الحشوية فليس فيه ما يدل على شخص معين ، ولا مقالة معينة ، فلا يدري من هم هؤلاء "[٢].

ويضاف لما سبق أننا لا نكاد نقف على أشخاص أو طوائف بعينهم اتفقت الكلمة على إدراجهم في عداد الحشوية الخلص ، ولهم تراث مكتوب ينصرون فيه مذهبهم الحشوي هذا ويدافعون عن آرائه ، ويردون على شبهات الخصوم ، كما لا نجد مصنفات بعينها نستطيع أن نقول

[١] – ابن الوزير : الروض الباسم ٢ / ٢٥٤ .

[٢] – ابن تيمية : منهاج السنة النبوية منهاج السنة ٢ / ٥١٨ .

باطمئنان إنها أفردت لعرض آراء الحشوية ، ويمكن لكل باحث عن أفكار تلك الفرقة أن يرجع إليها .

ويزيد الأمر إشكالا أن مصطلح الحشوية قد برز في سياق ما يمكن تسميته بحرب الألقاب والمصطلحات ، حيث تصك ألقاب ذم وتشويه للخصوم عبر مصطلح معين ، له دلالات معجمية ولغوية سيئة ، كما أن ظلال معناه والأطياف المحملة بداخله تبعث على النفور والاشمئزاز .

ومن الواضح أن الأمور السابقة كلها قد تحققت في هذا المصطلح ، إذ إن الحشو لا يخرج في إطلاقاته المختلفة عن معاني اللغو والفضول ، والحشوي شخص ضعيف العقل ، ومحدود التفكير والإدراك ، وبعيد تماما عن المقصود والمهم ، ومنشغل بما لا طائل من ورائه ، مما يعني أنه ضعيف العلم ، وبعيد تماما عن التحقيق والرسوخ في الفهم .

ومصداقا لذلك نجد أن المعتزلة يصفون مخالفيهم حتى لو كان من الصحابة أو التابعين بأنهم حشوية ، وتكرر الأمر نفسه لدى كل من الشيعة ونفر من الأشاعرة ، كما لم يخل العصر الحديث من بروز تلك الظاهرة أيضا ، حيث أسرف البعض في وصف خصومهم من مثبتة الصفات الواردة في النصوص الشرعية بالحشو ، بل تطور الأمر حتى صارت تهمة الحشو جاهزة لكل مخالف ، أو متبن لرأي معارض في أي مسألة علمية .

وهكذا استعمل الحشو لقبا للذم ، ووسيلة للتنقص والثلب ، ولم يهتم الكثيرون – حتى ممن استخدموه – بتقديم إجابات واضحة عما يثار حول هذا المصطلح من أسئلة متعلقة بمفهومه ونشأته ، وعلى من يطلق ، وما أبرز الآراء المعبرة عنه .

لكن هل يفهم من طرحنا التساؤلات السابقة – وما انطوت عليه من إشكالات عديدة – أننا نريد القول بأنه لا وجود مطلقا لظاهرة الحشو والحشوية ، وأن كل ما ورد في كتب الفرق والمقالات بشأنها لا يعدو أن يكون اتهامات ظالمة ليس عليها مستند أو برهان ؟

وإجابة على ذلك نقول إنه ليس بوسع مطالع لتاريخ الفرق ، ومقالاتها المختلفة أن ينكر وجود نزعة أو تيار حشوي ظهر عبر تاريخ الفكر الإسلامي الطويل ، وكان له عدد من الآراء المتهافتة ، والمخالفة تماما للنقل الصحيح والعقل الصريح ، من قبيل إهمال النظر وتعطيل

عمل العقل بالكلية ، والإسراف في القول بالتجسيم والتشبيه ، والتصديق بكل ما يروى من الأخبار ، دون تمييز بين الثابت والمكذوب ، وتبني أقوال مستشنعة لا يشهد لها نقل أو عقل .

وليس غرضنا من هذا البحث الذي نحن بصدده النفي التام لوجود الحشو والحشوية ، وإنما مقصدنا الأساسي هو محاولة دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية منصفة وموضوعية ، تتحرى العدل ، وتتحلى بالإنصاف ، وتتوخى الدقة في حكاية الآراء ونسبتها لأصحابها ، بعيدا عن اتهامات الخصوم المتبادلة ، وإطلاق أوصاف الذم دون تدقيق أو تحقيق .

ولعل من أهم الدوافع التي تبرز أهمية مثل هذه الدراسة أن الناظر لمسيرة الفكر الإسلامي عبر القرون المتلاحقة يمكنه أن يدرك الكم الهائل من النتائج والآثار السيئة المترتبة على ظاهرة الحشو ، والتي ألقت بظلالها الكئيبة على مجمل مسيرة هذا الفكر ، كما مثلت ثغرة خطير تسلل منها الحاقدون على هذا الدين ، والواقفون له بالمرصاد ، باحثين عن موضع إشكال أو اشتباه ، ينفذون من خلاله لبث الأراجيف ، أو التشكيك في الأصول والثوابت .

وربما كان من أبرز تلك الآثار استغلال بعض أعداء الإسلام لروايات موضوعة ، وأحاديث متهافتة السند والمتن للطعن في العقيدة والدين والوحي ، وربما ساعدهم على ذلك ذكر بعض أهل العلم لطرف من تلك الروايات ، كما في قصة الغرانيق التي سوف نشير إليها في موضع لاحق إن شاء الله .

ومن الآثار الأخرى اتخاذ بعض الشانئين على الإسلام من آراء الحشوية المسرفة في الخرافة ، ومجافاة العقل تكأة للطعن في الإسلام وحضارته ، وإظهاره بمظهر المعادي للعقل رغم أن كل واقف على نصوص القرآن والسنة يدرك بجلاء ما فيهما من دعوة مستمرة للنظر والتفكر والتعقل ، وإعلاء من شأن العلم ، وتعويل كامل على الحجة والبرهان ، ومحاربة شديدة للتقليد واتباع الهوى ، والأوهام والخرافات .

وقد أثمرت تلك التوجيهات في بروز علوم سامقة ، وقواعد منهجية فذة ، قام بها المحدثون والمؤرخون لنقد المرويات وسبرها ، وتمييز ما صح وما لم يصح منها ، كما جعلت من الاعتداد بالعقل وأدلته طابعا عاما ، وحقيقة متفقا عليها بين مدارس الفكر الإسلامي جميعا سوى اتجاهات شاذة لا يلتفت إليها ، ولا يعتد بخلافها .

وفي ضوء ما سبق كله تبرز الحاجة إلى دراسة موضوعية ومنصفة تتناول الحشو والحشوية كمصطلح أو اتجاه فكري ظهر قديما ، وما زال موجودا بصورة أو بأخرى حتى يومنا هذا .

وقد حاولنا في هذا البحث أن نجيب عن عدد من الأسئلة المهمة التي تكشف اللثام عن طائفة الحشوية ، من خلال تناولنا لعدد من المسائل والقضايا التي رأينا ضرورة التعرض لها ونحن ندرس هذا المصطلح ، حيث بدأنا أولا بوقفة متعمقة عند التعريف اللغوي والاصطلاحي ، ثم انتقلنا للبحث عن مبدأ نشأة هذا المصطلح ، والعوامل التي أسهمت في ظهور الحشو والحشوية .

وأخيرا حاولنا أن نحدد أبرز سمات الموقف الحشوي ، وأهم الآراء التي تبنتها الحشوية وهل كان الحشو مقصورا على فرقة بعينها ؟ أم أنه مثل تيارا فكريا عاما ، ظهرت تجلياته لدى العديد من الفرق والاتجاهات المختلفة في القديم والحديث على حد سواء ؟

المبحث الأول : تعريف الحشوية لغة واصطلاحا .

أولا– التعريف اللغوي :

الحشوية نسبة إلى الحشو أو الحشا[1] ، وقد ذكرت المعاجم اللغوية عددا من المعاني المختلفة للألفاظ التي اشتقت من هذه المادة ، ومن ذلك أن الحشو هو ما يحشى به الشيء ، وما تملأ به الوسادة ، ويقال أيضا فلان من حِشْوة بني فلانٍ ، أي من رُذالهم ، والحَشِيُّ من النبت : ما فَسَدَ أصله وعفن ، والحشو من الكلام : الفضل ، وما لا يعتد به ولا خير فيه ، والحَشْوُ من النّاس الذين لا يُعتدُّ بهم[2] .

وليس من العسير على المتأمل للمعاني اللغوية السابقة أن يستخلص منها قاسما مشتركا بين أكثر معانيها ، وهو أن الحشو في معظم إطلاقاته إنما يراد به الأشياء غير الضرورية أو قليلة القيمة ، وما لا يعبأ به في ميزان الناس واهتماماتهم .

ومن ذلك إطلاقه على اللغو من الكلام ، والتافه من الأشخاص ، والصغير من الإبل والفاسد من النبات ، وكلها أمور هامشية لا تطمح إليها الأبصار ، وقد ألمح ابن فارس إلى قريب من هذا الذي ذكرناه ، حينما أشار إلى أن العرب تقول " فلان من حِشْوة بني فلانٍ ، أي

---

[1] – المعجم الوسيط ١ / ١٧٧ .

[2] – انظر الخليل بن أحمد : العين ٣ / ٢٦١ ، وابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٢ / ٦٤، والفيروزآبادي : القاموس المحيط ٤ / ٣١١ ، والفيومي : المصباح المنير ١/١٣٨، والرازي : مختار الصحاح ص١٦٧ ، وابن منظور : لسان العرب ١٤/ ١٧٨، والزبيدي : تاج العروس ٣٧ / ٤٣٠ ، والمعجم الوسيط ١ / ١٧٧ .

من رُذَالهم ، وإنما قيل ذلك لأن الذي تحشى به الأشياءُ لا يكون من أفخر المَتاع ، بل أدْونِه "[1]

ثانيا– التعريف الاصطلاحي .

وعلى الرغم من أن مصطلح الحشوية قد استعمل بكثرة في المصنفات الكلامية المختلفة على سبيل الذم ، والتنقيص للمخالفين ، وتنفير الناس منهم ، إلا أننا نجد حالة واضحة من الاضطراب والاختلاف الشديد في بيان المراد منه ، وسبب إطلاقه ، وأصل تسميته ، ومن المقصود به تحديدا من الفرق والطوائف المتعددة .

وثمة تعريفات عامة جدا لا تقدم شيئا محددا أو معرفة ذات بال بتلك الفرقة أو آرائها ومنهجها ، وأعلامها المعبرين عن فكرها ، ومن ذلك قول الزبيدي " الحشوية طائفة من المبتدعة "[2] هكذا على سبيل العموم دون أن يذكر شيئا عن أقوالها ، ومثله قول الزمخشري : " النوابت وهم الحشوية "[3] دون أن يحدد بوضوح من هم النوابت ، ومن هم الحشوية .

أما التعريفات الأخرى التي تنحو منحى أكثر تفصيلا في بيان معنى التسمية وسبب إطلاقها ومن المقصود بالحشوية ، فهناك اختلاف واضح بينها ، وتداخل في المفاهيم ، وتعدد في الأقوال حتى فيما يخص الشخص الواحد ، وأبرز ما وقفنا عليه من آراء في هذا الصدد يتمثل فيما يلي :-

<u>أولا</u> : يراد بالحشوية العامة الذين هم حشو الناس ، وفضلتهم ، وجهالهم[4] ، ورذالتهم ، وهم غير الأعيان والمتميزين ، وقد وسم الشيعة بذلك كل من لم يقل بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، واصفين إياهم بأنهم السواد الأعظم ، وأهل الحشو وأتباع الملوك ، وأعوان كل من غلب[5] .

---

[1] – ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٢ / ٦٤ .

[2] – الزبيدي : تاج العروس ٣٧ / ٤٣٤ .

[3] – الزمخشري : أساس البلاغة ١ / ٦١٣ .

[4] – انظر ابن عيسى : شرح نونية ابن القيم ٢ / ٧٧ .

[5] – انظر النوبختي : فرق الشيعة ص ١٩.

ثانيـــا – يـراد بالحشـوية : رواة الأحاديـث مـن غيـر تمييـز لصـحيحها مـن سـقيمها وقد ذهب لهذا الرأي عدد من المتقدمين والمتأخرين ، وإن كان هناك اختلاف في بيان وجه تسميتهم حشوية .

فهناك من قال إنهم سموا حشوية لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أي يدخلونها فيها وليست منها [١] وهناك من قال إنهم سموا حشوية لكثرة قبولهم الأخبار من غير إنكار [٢] ، أو لكثرة ولعهم بالأخبار وكلام السلف الصالح [٣] ، أو لأنهم حشوا الحديث بإسرائيليات [٤] .

ويبدو أن هذا القول قد شاع نوعا ما ، مما دفع جماعة من المحدثين إلى إنكار ذلك ، وتبرئة أهل الحديث ، والرد على من اتهمهم بأنهم يروون ما لا يعقلون ، ويحتجون بما لا يدرون ويصححون ما يدفعه العيان والحس [٥] .

ثالثا : يراد بالحشوية المجسمة ، وقد عرفهم بذلك عدد غير قليل من المتقدمين [٦] والمتأخرين فمن المتقدمين نجد السكسكي يجزم بأن الحشوية هم المجسمة ، ويحكي عنهم آراء في غاية الشناعة مثل قولهم " بأن الله تعالى عن قولهم على صورة شاب أمرد ، له شعر قطط ، في رجله نعل من ذهب ، ينزل يوم عرفة على جمل أحمر ، وينزل في كل ليلة جمعة " [٧] ومن المتأخرين عرف الشيخ منصور عويس الحشوية بأنهم " الذين حادوا عن التنزيه ، وتقولوا على الله تعالى بأفهامهم المعوجة ، وأوهامهم المرذولة الممجوجة " [٨] .

---

[١] – انظر نشوان الحميري : الحور العين ١/ ٦٠ ، وابن الوزير : الروض الباسم ٢ / ٢٥٥ .

[٢] – انظر ابن الوزير : الروض الباسم ٢ / ٢٥٥.

[٣] – انظر عباس بن منصور السكسكي : البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٩٥.

[٤] – انظر د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ١ / ٢٥٠ .

[٥] – انظر ابن حبان : صحيح ابن حبان ١٤ / ٣٥ ، ١٥ / ٤٧ .

[٦] – انظر السيوطي : لب اللباب في تحرير الانساب ٢ / ٣٥٨ ، والمرداوي : التحبير شرح التحرير ٣ / ١٤٠٣ .

[٧] – السكسكي : البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٣٨.

[٨] – منصور عويس : ابن تيمية ليس سلفيا ص ٢٤٧ .

وثمة اختلاف بين أصحاب هذا القول في سبب تسمية المجسمة بالحشوية ، فالبعض يرى أنهم سموا بذلك لأن الجسم حشو أو محشو ، وهم قائلون بالتجسيم فنسبوا إليه[١] ، ويرى البعض الآخر أنهم سموا بذلك لأنهم جعلوا ربهم حشو هذا الكون حينما نسبوا له صفات الأجسام ومنها المكانية[٢] ، ومن الكتاب المعاصرين من ذهب إلى أن تسميتهم بالحشوية راجعة إلى أنهم يعمدون إلى حشو فكرة الذات الإلهية بكثير من الصفات على خلاف المعتزلة الذين ينفون الصفات[٣] .

رابعا : المقصود بالحشوية قوم من ضعاف العقول وعديمي النظر والتمييز ، ممن أنكروا الاجتهاد ، وعكفوا على التقليد واتباع المنقول ، دون فحص أو إعمال رأي ، وقد تتابع على وصفهم بذلك نفر من الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم ، مثل ابن سينا[٤] ، والزمخشري[٥] والصاحب بن عباد[٦].

خامسا : الحشوية هم القائلون بجواز أن يخاطبنا الله بالمهمل أو ما لا معنى له ، وأن ذلك موجود في الكتاب والسنة[٧] ، والذي لا معنى له هو الحشو ولذا سموا بالحشوية [٨] ، وقد نقل التهانوي تعليلا آخر غريبا وهو أنهم يطلقون " الحشو على الدين ، فإن الدين يتلقى من الكتاب والسنة وهما حشو ، أي واسطة بين الله ورسوله وبين الناس "[٩] ومن الكتاب المعاصرين من قال إنهم منسوبون إلى الحشو " وهو اللغو الذي لا اعتبار له فضلا عن أن يكون منسوبا إلى الله ورسوله "[١٠] .

---

١ – انظر التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ١ / ٦٧٨ ، والكوثري : مقدمة السيف الصقيل ضمن العقيدة وعلم الكلام من أعمال الكوثري ص ٤٢٤ ، ومنصور عويس : ابن تيمية ليس سلفيا ص ٢٤٧ .

٢ – انظر ابن عيسى : شرح النونية ٢ / ٧٧ .

٣ – انظر د. أبو الوفا التفتازاني : علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١٠٩ .

٤ – ابن سينا : المنطق ٢ / ٣٣١ .

٥ – الزمخشري : الكشاف ٢ / ٣٣١ .

٦ – الصاحب بن عباد : المحيط في اللغة ٩ / ٤٤٦ .

٧ – انظر المرداوي : التحبير شرح التحرير في أصول الفقه ٣ / ١٤٠٣ ، والسيوطي : لب اللباب في تحرير الانساب ٢ / ٣٥٨ ، و التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ١ /٦٧٩ .

٨ – السيوطي : لب اللباب في تحرير الانساب ٢ / ٣٥٨ .

٩ – التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ١ / ٦٧٩ .

١٠ – سلامة العزامي : فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الإنسان ص ١٦ .

سادسا :الحشوية قوم من المنتسبين للإمام أحمد بن حنبل أساءوا فهم مذهبه وما نقل عنه من عبارات ، واعتقدوا اعتقادات شنيعة ، لا صلة للإمام أحمد بها[١] .

سابعا : الحشوية هو اللقب الذي أطلقه الحسن البصري على جماعة كانوا يجلسون في حلقته فوجد كلامهم رديئا ، فقال : ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أي جانبها ، فسموا الحشوية من أجل ذلك[٢] .

تعقيب

وبعد أن سقنا جل ما استطعنا الوقوف عليه من أقوال أهل العلم حول مفهوم الحشوية وسبب التسمية ، يبقى لنا محاولة النظر في تلك الأقوال نظرة نقدية ، والخروج برأي راجح حول المفهوم الدقيق لمصطلح الحشوية .

ولعل أول ما تجدر الإشارة إليه أنه ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن الفرقة أو الطائفة إنما تتشكل في الغالب من خلال ظهور شخصية أو جماعة تتبنى عددا من الآراء أو الأفكار ويكون لها منهج ما تنصره وتنافح عنه ، وتسعى لدعمه بالتأليف أو المناظرة .

وأما الاسم أو اللقب الذي يطلق على هذه الفرق فله حالات شتي ، فأحيانا تسمي الطائفة نفسها بلقب أو اسم ترتضيه وينبع من آرائها ، أو أبرز الثوابت التي تجتمع حولها ، مثلما هو الحال في اسم أهل السنة والجماعة ، أو اسم أهل التوحيد والعدل الذي سمى به المعتزلة أنفسهم .

وفي بعض الأحيان تنشأ التسمية من قبل أناس من خارج الفرقة نسبة لمؤسسها أو نسبة لأصل مذهبي تمحورت حوله ، مثل تسمية : الأشاعرة والزيدية والباطنية والجهمية والكلابية وفي أحيان أخرى تكون التسمية لقبا للذم يطلقه خصومها – إما بحق وإما بباطل – ثم تشيع تلك التسمية فيما بعد ، مثل تسمية : الرافضة والجبرية والخوارج وغيرهم .

---

[١] – السيف الصقيل ضمن العقيدة وعلم الكلام من أعمال الكوثري ص ٤٢٥ ، وانظر أيضا منصور عويس : ابن تيمية ليس سلفيا ص ٢٤٨

[٢] – انظر المرداوي : التحبير شرح التحرير في أصول الفقه ٣ / ١٤٠٣ .

وإذا طبقنا القواعد السابقة على الحشوية فليس بوسعنا أن نقول إن هناك شخصية بعينها يمكن نسبة المذهب إليها ، نظرا لابتداعها القول بالحشو وتأسيس الدعوة إليه لأول مرة ، ثم جاء على أثرها أتباع ومشايعون نصروا مذهبهم بالتأليف والدعوة والمناظرة ، وما أشبهها من وسائل وأساليب .

وقد نبه ابن تيمية رحمه الله إلى الحقيقة السابقة حيث أشار إلى أن " مسمى الحشوية في لغة الناطقين به ليس اسما لطائفة معينة ، لها رئيس قال مقالة فاتبعته كالجهمية والكلابية والأشعرية ، ولا اسما لقول معين من قاله كان كذلك ، والطائفة إنما تتميز بذكر قولها أو بذكر رئيسها "[1] كما تتميز أحيانا " باسم رجالها أو بنعت أحوالها ، فالأول كما يقال النجدات والأزارقة والجهمية والنجارية والضرارية ونحو ذلك ، والثاني كما يقال الرافضة والشيعة والقدرية والمرجئة والخوارج ونحو ذلك ، فأما لفظ الحشوية فليس فيه ما يدل على شخص معين ولا مقالة معينة فلا يدري من هم هؤلاء "[2] .

والواضح من خلال مطالعة كتب الفرق المختلفة أن التلقيب بالحشوية نشأ في الغالب على ألسنة الخصوم ، ثم صار وصفا شائعا تطلقه كل فرقة على مخالفيها في الرأي ، فالشيعة الإمامية يصفون كل من لم يقل بإمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة بأنه حشوي ؛ أي: من عامة الناس وسقطهم ، والمعتزلة يعتبرون كل من أثبت الصفات، وقال بخلق الله لأفعال العباد بأنه من حشو الناس وعامتهم ، ولا يعتد بكلامه في العقيدة ؛ لأنه لم يتعمق تعمقهم في التأويل، ولا ذهب مذاهبهم في الإنكار والتعطيل؛ ونفس الحكم ينطبق على كل من آمن بظواهر النصوص وأثبت ما دلت عليه، ولم يشتغل بصرفها، وتأويلها، فهو عندهم حشوي بعيد عن التحقيق ، وكذلك الأمر عند طائفة من الأشاعرة والماتريدية ولا سيما المتأخرين ؛ فكل من أثبت الصفات الخبرية ، ولم يؤولها ويصرفها عن ظاهرها، يعد حشويًا .

وإذا نحينا جانبا هذا التنابز بالألقاب واللدد في الخصومة فنستطيع أن نقول إن الحشوية " مصطلح عام له معان مختلفة "[3] وهو عبارة عن اتجاه عام ، و تيار فكري موجود داخل الكثير من المذاهب والطوائف المختلفة [1].

---

[1] – ابن تيمية : بيان تلبيس الجهمية ٢ / ٢٦٨ .

[2] – ابن تيمية : منهاج السنة ٢ / ٥١٨ .

[1]– د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٨٧ .

ويتسم هذا التيار بعدد من السمات والخصائص ، يأتي في مقدمتها قبول كل ما يروى من النصوص والأخبار ، وتصديقها دون تمحيص كاف لها ، أو نقد لمحتواها وطريقة وصولها كما يتسم برفض العقل وأدلته ، والتعويل على ما يظنه أدلة نقلية مع سوء فهم لها ، وحملها على ما لا يتوافق مع دلالتها الصحيحة ، أو ما يفهم من ألفاظها وفق قواعد تفسير النصوص المعتبرة .

ووفقا لهذا المفهوم فهناك حشوية داخل الشيعة ، وحشوية لدى الحنابلة ، وحشوية لدى المفسرين والمحدثين ، كما أن الفرق القائلة بالتجسيم والتشبيه مثل الكرامية لها نصيب غير منقوص من الوصف بالحشو .

بل إن من الأمور المستغربة أننا نجد ما يمكن وصفه بالنزعة الحشوية داخل مذهب الخوارج ، حيث ذكرت كتب الفرق أن من طوائفهم فرقة تسمى الشيبانية ، وهم أتباع شيبان بن سلمة الذي خرج أيام أبي مسلم الخراساني فشبه الله تعالى بخلقه ، وزعم أن الله لم يعلم حتى خلق لنفسه علما ، وأن الأشياء إنما تصير معلومة له عند حدوثها ووجودها ، وفي كلامهم هذا تشبيه لعلم الله بعلم المخلوقين[٢] ، ولذلك ذكر عبد القاهر البغدادي أن فرقة الثعالبة من الخوارج كفرت فرقة الشيبانية لقولهم بالتشبيه[٣] .

كذلك وجدت نزعة حشوية مستشنعة عند فرقة الخابطية التي ينسبها بعض مؤرخي الفرق للمعتزلة – وإن كان المعتزلة يتبرءون منها – لكن ما يعنينا هنا أن الخابطية تبنوا آراء في غاية الانحراف والضلال ، منها تشبيه عيسى بن مريم عليه السلام بالله تعالى ، والزعم بأن للخلق ربين وخالقين أحدهما قديم وهو الله سبحانه ، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم ، كما زعمت أن المسيح ابن الله على معنى البنوة دون الولادة ، وزعمت أيضا أن المسيح هو الذي يحاسب

---

[١] – انظر د. حسن الشافعي : المدخل إلى دراسة علم الكلام ص ٧٥ ، ٧٦ ، ود. السنهوتي دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٢٨٠ .

[٢] – انظر أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين ١ / ١٨٠ ، ١٨١ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ٥٧ ، وعبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٠٢ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٣٢، ود.جابر إدريس : مقالة التشبيه ١ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

[٣] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ١٠٢ .

الخلق في الآخرة ، وهو الذي عناه الله بقوله (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)(سورة الفجر :٢٢) وهو الذي يأتي في ظلل من الغمام ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا [١] .

وخلاصة ما نخرج به من الاستعراض المتقدم لتعريفات الحشوية أن مصطلح الحشو والحشوية – رغم كل ما انتابه من اختلاف واضطراب – يمكن أن يصدق في رأينا على ثلاثة اتجاهات أو تيارات فكرية ، تتمثل فيما يلي :–

الأول : الاتجاهات القائلة بالتشبيه ، والتجسيم ، والمماثلة بين صفات الخالق سبحانه ، وصفات المخلوقين .

الثـاني : الاتجاهـات المنحيـة للعقل بالكليـة ، والتـي تقبـل كـل مـا يشـيع أو ينقـل مـن خرافـات وأساطير ، وما يترتب على ذلك من تبنيها لآراء في غاية الغرابة والشذود .

الثالث : الاتجاهات التي تروى الموضوعات من الأحاديث والآثار ، والإسرائيليات من القصص والأخبار ، ولا تميز بين الصحيح والموضوع ، سواء في مجال العقيدة أو الحديث أو التفسير .

وقبل أن نختم الكلام عن معنى الحشو اصطلاحا نود أن نشير إلى عدة ملاحظات مهمة تتمثل فيما يلي :–

الملاحظـة الأولـى : من المعلوم أن مصطلح الحشوية مصطلح مستحدث لـم يـذكر فـي القرآن الكريم ، كما لم يذكر في السنة النبوية الصحيحة ، وقد نبه ابن قتيبة إلى ذلك حيث أشار إلى أن خصـوم أهل السـنة " لقبـوهم بالحشـوية والنابتـة والمجبـرة ، وربمـا قـالوا الجبريـة ، وسـموهم الغثـاء والغثر ، وهذه كلها أنباز لم يأت بها خبر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم "[٢]

لكن ربما عكر على هذا الأمر الحديث الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنـه قال لكل أمـة مجوس ، ولكل أمـة نصـارى ، ولكل أمـة يهـود ، وإن مجـوس أمتـي القدريـة ونصـاراهم

---

[١] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٠ ، ود. جابر إدريس : مقالة التشبيه ١ / ٣١٧ .

[٢] – ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ ، ٨١ .

الحشوية ، ويهودهم المرجئة "[1] ومن الملاحظ أنه بينما وردت كلمة " الحشوية " عند الهيثمي في مجمع الزوائد[2] حينما ساق هذا الحديث فقد كتبت " الخشبية " في نسخة المعجم الأوسط للطبراني ، وفي ظني أن احتمال التصحيف وارد في كلا المرجعين ، وإن كان الأمر لن يختلف كثيرا لأن إسناد الحديث ضعيف كما قال الهيثمي .

وثمة حديث آخر ذكره صاحب كتاب الانتصار ونسبه للرسول صلى الله عليه وسلم ونصه " يأتي في آخر الزمان قوم من الزنادقة يسمون أمتي الحشوية لاتباعهم الأخبار "[3] ولم أجد من خرج هذا الحديث ، وإن كان الواقف عليه لا يشك في أنه موضوع ومختلق ، ويبقى أن مصطلح الحشوية مصطلح مستحدث لا وجود له في القرآن ، ولا في السنة الصحيحة .

الملاحظة الثانية : أن مصطلح الحشو – الذي نسبت إليه الحشوية – قد استعمل في عدد من العلوم العربية مثل المعاني والنحو والعروض ، وقصد به معنى قريبا جدا من دلالته اللغوية حيث عرف بأنه الزائد الذي لا طائل تحته[4] ، والحشو عند علماء المعاني هو " الزائد المتعين الذي لا طائل تحته "[5] ومن المصطلحات اللغوية أيضا التحرير وهو " تخلية الكلام عن الحشو والتطويل "[6] ، لكن هذا الحشو شيء وما ندرسه نحن شيء آخر ، ولا يجمع بينهما سوى التقارب في المعنى اللغوي .

الملاحظة الثالثة : أن هناك عددا من الألقاب والمصطلحات الأخرى القريبة في المعنى من الحشوية ، والتي استخدمها المعتزلة والشيعة في سياق السب والشتم لخصومهم ، ولا سيما أهل السنة وأصحاب الحديث ، ومن ذلك مصطلح : النابتة ، والغثاء ، والرعاع ، وحملة الأسفار[7] ، وقد رادف نفر من المعتزلة وغيرهم بين بعض هذه المصطلحات وبين مصطلح الحشوية ، ومن

---

[1] – رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٩ / ٩٣ ، حديث (٩٢٢٣)

[2] – الهيثمي : مجمع الزوائد ٧ / ٢٠٧ .

[3] – يحيى بن أبي الخير العمراني : الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار ١ / ١٤٠ .

[4] – الجرجاني : التعريفات ص ١١٨ .

[5] – الأحمد نكري : دستور العلماء ٢ / ٢٦ .

[6] – الأحمد نكري : دستور العلماء ١ / ١٨٩ .

[7] – انظر ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ ، ٨١ ، وأدب الكاتب ص ٦ ، والرامهرمزي : المحدث الفاصل ص ١٦٢ .

ذلك تعريف الزمخشري للنابتة والنوابت ، بأنهم الحشوية[1] وذكر الزبيدي أن النوابت : الأغمار من الأحداث ، وهم طائفة من الحشوية ، أَنْبَتُوا بِدعاً غريبةً في الإسلام[2] كذلك عدّ ابن النديم : نابتة الحشوية ، والمجبرة ، في فن واحد ، من كتابه الفهرست ، وجعل منهم البُخاري ، وابن كُلّاب ، وأبا الحسن الأشعري[3] ، مع أن هؤلاء المذكورين برآء تماما من القول بالحشو ، وإنما دفع ابن النديم لذلك الاتهام : الإسراف في الخصومة ، والمخالفة في الرأي والعصبية للمذهب .

المبحث الثاني: نشأة مصطلح الحشوية .

ولاشك أن الباحث عن نشأة المصطلحات ، أو ألقاب الفرق والاتجاهات الكلامية عموما وأول من أسسها يجد شيئا من الصعوبة وتضارب الأقوال والروايات أحيانا ، لأن نشأة المصطلح أو لقب الفرقة ظاهرة معقدة بعض الشيء ، وربما تبدأ بكلمة أو جملة عابرة يطلقها بعض الأعلام عفو الخاطر ثم يكتب لها الذيوع والانتشار ، وبعد ذلك تبدأ مرحلة لاحقة ينشغل فيها أهل العلم في تعليل التسمية والسر في إطلاقها .

وتاريخ الفرق حافل بنماذج عديدة من هذا القبيل فاسم المعتزلة كما هو شائع أخذ من عبارة الحسن البصري " اعتزلنا واصل " واسم الرافضة أطلق على من رفضوا قول زيد بن علي وموقفه من الشيخين أبي بكر وعمر .

وأما أسماء الفرق أو الطوائف التي تنسب لمؤسسيها وتسمى بأسمائهم ، فالأمر فيها أيسر من النوع الأول ، وإن كان من البدهي أن التسمية لا تنشأ إلا بعد فترة كافية من ذيوع آراء المؤسس وانتشار فكره ، وربما حدث ذلك بعد وفاته ، كما هو الحال فيما يتعلق بالزيدية والأشاعرة ، والماتريدية ، والكرامية ، وغيرهم .

وفي بعض الأحيان تنسب طائفة ما إلى اسم علم من أعلامها البارزين ، وذلك على سبيل الذم والتنقيص كتسمية السلفيين وأصحاب الحديث بالتيميين أو الوهابيين ، مع كراهتهم لتلك التسمية ، وإلحاحهم على أن مذهبهم لم ينشأ على يدي هذين العلمين ، وإنما هو قديم الجذور وممتد

---

[1] – انظر الزمخشري : أساس البلاغة ١ / ٦١٣ .

[2] – انظر الزبيدي : تاج العروس ٥ / ١١٣ .

[3] – انظر ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤ .

بحبل وثيق إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعيهم ، وسلف هذه الأمة الصالحين .

وإذا ما جئنا إلى مصطلح الحشوية الذي نحن بصدده فقد تبين لنا مما سبق أنه ليس منسوبا إلى شخص ما ، وإنما هو – على اختلاف وجهات النظر التي سبق لنا عرضها تفصيلا – منسوب لطبيعة الآراء التي قال بها هؤلاء النفر ، ويصدق عليها وصف الحشو بكل ما يحمله من دلالة على الذم والتنقيص .

ويمكننا أن نجزم ونحن مطمئنون بأن هذه الظاهرة لم تنشأ في عهد الصحابة ، ولا أظن أننا بحاجة لمزيد استدلال كي نثبت أن عصرهم قد خلا تماما من ظاهرة الحشو والحشوية بكل صورها وأنواعها ، ولم يكن بين الصحابة قط من يقال عنه إنه حشوي .

وكما يقول د. النشار فقد " خلا عصر الصحابة من هذا الحشو ، وإن كان قد اتهم عدد من الصحابة بأنهم قبلوا الكثير من الأحاديث بدون تفحص أو نقد ، وعلى رأس هذا العدد الصحابيان المشهوران : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبو هريرة ، ولم يكن عبد الله بن عمر حشويا على الإطلاق ، وإنما كان تابع السنة حريصا عليها أشد الحرص ، وكان يتحرى الدقة في حديثه وروايته ، أما أبو هريرة فقد أكثر حقا من رواية الحديث لكثرة ملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن المؤكد أن كثرة الرواية تجعل للطاعنين – وبخاصة من الشيعة – مدخلا للهجوم على الرجل ومحاولة القدح فيه والنيل منه ، فلم يكن الرجل إذن وفي نهاية الأمر حشويا بالمعنى المتعارف لهذه الكلمة "[١]

ومع موافقتنا للحكم الذي انتهى إليه الدكتور النشار من نفي وصمة الحشو عن الصحابة فمن المهم أن نشير إلى أن إكثار بعض الصحابة من الرواية ليس مطعنا بحال ، إذ إن عدالتهم وضبطهم أمر متحقق لا غبار عليه ، وكثرة مجالستهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم هيأت لهم أن يسمعوا ثم يرووا كل هذا العدد الكبير من الأحاديث .

أما رواية نفر منهم للإسرائيليات فلا تخدش في صحة ما رووه ، ولا تجعل منهم – كما حاول أن يصورهم بعض المستشرقين ومن تبعهم من الكتاب العرب – مجموعة من السذج أو الخرافيين

---

[١] – د النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٨٥ .

الذين يصدقون كل ما يلقيه إليهم رواة الإسرائيليات من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما .

والسبب في ذلك[1] أن عادة الصحابة المطردة أنهم إذا أخذوا عن أهل الكتاب لم يصدقوهم إلا فيما يتفق مع شريعتنا ، وكانوا يكذبونهم فيما يخالفها، ويتوقفون فيما يحتمل الصدق والكذب كما لم يكونوا يسألون عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من العبث ومن تضييع الوقت بغير فائدة ، كمقدار سفينة نوح ونوع خشبها ، واسم الغلام الذي قتله الخضر ولون كلب أصحاب الكهف ، كما أن الصحابة ما كانوا يسألون أهل الكتاب عن شيء يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام ، وإنما الأمر دائر فقط حول قصص الأنبياء وأخبار السابقين .

كذلك يلاحظ من تتبع أحوال الصحابة في هذا الباب أنهم لم يكونوا يقبلون كل ما يسمعونه من الإسرائيليات بل كانوا إذا سألوا أهل الكتاب عن شيء فأجابوا عنه خطأ كذبوهم ، وردوا عليهم ، وبينوا لهم وجه الصواب ، وثمة شواهد عديدة على ذلك ، منها ما رواه البخاري في صحيحه أن معاوية رضي الله عنه ذكر كعب الأحبار فقال " إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب "[2] ولما سمع ابن عباس أن نوفا البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر قال " كذب عدو الله "[3]

ويضاف لما سبق أن التربية الإيمانية والعلمية والمنهجية التي تعهد بها الرسول أصحابه تجعلهم أبعد الناس عن الحشو – بكل معانيه التي أشرنا إليها من قبل – سواء قصدنا به رواية المكذوبات والإسرائيليات الباطلة ، أو القول بالتجسيم والتشبيه ، أو ترديد ما لا يعقل من الأقوال والآراء ، حيث ربى القرآن والسنة الصحابة على الإعلاء من شأن الدليل والبرهان وحب العلم وتحصيل المعرفة ، والنهي عن اتباع الظن والأوهام والخرافات ، والتحذير من الاقتصار على ظواهر الأشياء وعوارضها ، والعناية التامة بالفهم لحقائقها وجواهرها والتأكيد على أن العبرة بالكيف والجوهر ، وليس بالكم والمظهر ، ولا شك أن كل هذه القواعد المنهجية مما يتنافي تماما مع العقلية الحشوية ، التي تركن إلى التقليد ، وتتبع الخرافات وتعطل العقل تماما ، وتلغي أي دور له .

---

[1] – انظر رمزي نعناعة : الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ١١٨ – ١٢٠ .

[2] – رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .

[3] – رواه البخاري (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠)

وهكذا نخلص إلى أن ظاهرة الحشو لم تظهر في عصر الصحابة بأي صورة من الصور أما تحديد الوقت الذي ظهر فيه مصطلح الحشوية ، وأول من استخدمه ، فقد انقسمت آراء أهل العلم في ذلك إلى اتجاهين ، ينسب كل واحد منها نشأة هذا المصطلح إلى شخصية شهيرة .

الاتجاه الأول : أن أول ظهور لهذا المصطلح إنما ورد على لسان الحسن البصري حينما قال لجماعة من الناس كانوا يجلسون في حلقته ، وتفوهوا بكلام منكر : ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة – أي جانبها – فسموا بالحشوية ، وثمة عدد من الملاحظات على هذه الرواية .

أولها : أنه قد نقلها عن الحسن وعزاها إليه عدد غير قليل من أهل العلم[1] ، وإن كنت لم أستطع الوقوف على نقل مباشر عنه أو من يرويها بسند متصل .

وثانيها : أن الرواية لم تبين لنا ما سبب إنكار الحسن البصري عليهم ، وما طبيعة الكلام المنكر الذي قالوه ، وإلى أي الفرق ينتمي هؤلاء القوم ، لا سيما إذا علمنا أن الحسن رحمه الله توفي عام عشرة ومائة من الهجرة النبوية ، أي في مرحلة تاريخية مبكرة وقبل ظهور الكثير من الفرق .

وثالثها : أن من العجيب حقا أن تكون كلمتان عابرتان قالهما الحسن البصري سببا في تسمية طائفتين متناقضتين تمام التناقض في المنهج والآراء ، وهما المعتزلة والحشوية فحينما قال الحسن اعتزلنا واصل ظهر لقب المعتزلة للوجود ، وحينما قال ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة برز لقب الحشوية .

الاتجاه الثاني : أن أول ظهور لهذا المصطلح إنما ورد على لسان المعتزلة ، فهم أول من جرى هذا اللفظ على ألسنتهم ، وكما يقول ابن تيمية : " هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة فإنهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم الحشو، كما تسميهم الرافضة الجمهور "[2]

---

[1] – انظر المرداوي : التحبير شرح التحرير في أصول الفقه ٣ / ١٤٠٣ ، وابن النجار : شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير ٢ / ١٤٧ ، وحسن العطار : حاشية العطار على جمع الجوامع ١ / ٣٠٣ ، وابن عيسى : توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ٢ / ٧٧ .

[2] – ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١٨٥ ، ١٨٦ ، وانظر أيضا درء التعارض ٧ / ٣٥١ .

ويزيد ابن تيمية الأمر تحديدا حيث يعد عمرو ابن عبيد أحد أئمة المذهب الاعتزالي الأوائل أول من استخدم هذا اللقب ، وعمرو ومثله واصل بن عطاء من تلامذة الحسن البصري[1] قبل أن يعتزلا مجلسه ، فهل سمع عمرو من الحسن تلك اللفظة ، ثم أطلقها هو بمفهومه الخاص ؟ أم أنه أنشأها إنشاء جديدا ؟ الحق أنه يصعب الجزم برأي قاطع في تلك المسألة .

وقد جاء استخدام عمرو بن عبيد للفظة الحشوية من خلال وصفه للصحابي الجليل عبد الله بن عمر ، وفي ذلك يقول ابن تيمية " فأول من عرف أنه تكلم في الإسلام بهذا اللفظ عمرو ابن عبيد رئيس المعتزلة وفقيههم وعابدهم ، فإنه ذكر له عن ابن عمر شيء يخالف قوله فقال : كان ابن عمر حشويا ، نسبه إلى الحشو ، وهم العامة والجمهور "[2].

ولا أظن أننا بحاجة للإطالة في بيان براءة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر من تلك التهمة الشنعاء ، ونكتفي فحسب بالإشارة إلى التناقض الاعتزالي في الموقف من ابن عمر رضي الله عنه ، إذ بينما عده عمرو بن عبيد حشويا ، فإن القاضي عبد الجبار – وهو أبرز منظري المذهب الاعتزالي في أوج اكتماله – قد اعتبر ابن عمر من المعتزلة ، حيث جعل الطبقة الأولى من المعتزلة الخلفاء الأربعة عليا ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، ثم من سائر الصحابة عبد الله بن عمر ، وأبا ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ، رضوان الله عليهم أجمعين[3] .

لكن يبقى ثمة إشكال يحتاج إلى شيء من النظر في مدى صحة صدور اتهام عمرو بن عبيد هذا لابن عمر ، وهل ثبت عنه فعلا ، أم أن ذلك من تشنيعات خصوم المعتزلة ومحاولاتهم لتشويه صورة مذهبهم ؟

والواقع أنني لم أستطع الوقوف على كلام عمرو هذا في كتب المعتزلة ، إلا أن نسبة هذا القول إليه قد تكررت أكثر من مرة في كتب ابن تيمية المختلفة[4] مثل درء التعارض[1] ، ومجموع الفتاوى[2] ، ومنهاج السنة النبوية[3] .

---

[1]– انظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٣٩٩ ، ود. محمد صالح السيد : عمرو بن عبيد وآراؤه الكلامية ص ٢١ .

[3] – ابن تيمية : بيان تلبيس الجهمية ١ / ٢٤٤ .

[3] – القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢١٤ ، وانظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٤١١ .

[4] – انظر د.ناصر العقل : دراسات في الأهواء والفرق ص ٤٩٢ ، ود.جابر إدريس : مقالة التشبيه٢ /١٩٤ ود.عبد الله بن صالح الغصن : دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٥٣ .

وقد عرف ابن تيمية رحمه الله بالدقة الشديدة والأمانة العلمية في نقل أقوال الخصوم[٤] ، وأقر له بتلك المزية عدد من أساتذة الفلسفة ومناهج البحث المعاصرين ، ومنهم من يعد في قائمة خصوم الرجل والمنتقدين له بشدة مثل الدكتور النشار ، والذي وصفه بأنه " كان مؤرخا ممتازا للفكر الإسلامي ، وأنه ترك لنا نصوصا رائعة نستطع بواسطتها أن نصوغ المذاهب التي لم تصل إلينا مصادرها الأصلية صياغة منهجية متكاملة "[٥] وكذلك امتدح الدكتور أحمد صبحي نزاهة ابن تيمية في الحوار ، وأمانته في نقل أقوال الخصوم ، ولا سيما في كتابه منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، حتى إن من لم " يطلع على كتاب منهاج الكرامة في الإمامة لابن المطهر الحلى– والذي يرد عليه ابن تيمية– يستطع أن يستخلص من كناب ابن تيمية معظم عبارات ابن المطهر بنصها "٦ .

ولعله مما يزيد الأمر وثوقا أن ابن تيمية رحمه الله ليس الوحيد المنفرد بذلك ، فقد نقل هذا الكلام عن عمرو بن عبيد أحد علماء الجرح والتعديل السابقين لابن تيمية ، وهو ابن ماكولا في كتابه الإكمال[٧]، ونسبه لعمرو أيضا المؤرخ المعروف ابن العماد الحنبلي صاحب شذرات الذهب [٨]، ومن الأساتذة المعاصرين الدكتور النشار في كتابه نشأة الفكر الفلسفي[٩] .

ومن الشواهد الأخرى التي تؤكد صحة القول السابق عن عمرو بن عبيد أن مصطلح الحشوية قد تردد على لسانه في نص نقله القاضي عبد الجبار عن أبي عمرو حفص بن العوام قال " أتيت عمرو بن عبيد في منزله ، فرأيت عنده جماعة وكأن على رءوسهم الطير ، وعنده واصل

---

[١] – انظر ابن تيمية : درء التعارض ٧ / ٣٥١ .

[٢] – انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١٨٦ .

[٤] – انظر ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٢ / ٥٢٠ .

[٥] – انظر د. عبد الرحمن المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١ / ٣١٨ .

[٦]– انظر د.النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٧٨ ، وانظر أيضا ١ / ٢٧٠ .

[٧]– انظر د. أحمد صبحي : في علم الكلام، الأشاعرة ص ٩٥ ، ٩٦ ، ود. عبد الرحمن المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١ / ٣١٩ .

[٧] – ابن ماكولا : الإكمال ٧ / ٢٦٦ .

[٨] – ابن العماد : شذرات الذهب ١ / ٢١١ .

[٣]– انظر د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ١ / ٤١١ .

بن عطاء فحفظت من كلام عمرو : هؤلاء الحشوية آفة الدين ، وهم الذين صدوا الناس عن القيام بالقسط ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "[1].

ويبدو من الواضح لمن يطالع تاريخ المذهب الاعتزالي في نشأته الأولى أن الرد على المشبهة ، ومن يسمون بالحشوية كان من ضمن جوانب اهتمام المذهب الأساسية ، والتي حظيت بعناية كبيرة من أعلام المذهب المتلاحقين ، وقد أشار الجاحظ إلى أن واصل بن عطاء هو أول من كتب في الردود عموما ، وفي الرد على الحشوية خصوصا فقال " لم يعرف في الإسلام كتاب كتب على أصناف الملحدين ، وعلى طبقات الخوارج، وعلى غالية الشيعة والمشايعين في قول **الحشوية** قبل كتب واصل بن عطاء، وكل أصل نجده في أيدي العلماء في الكلام والأحكام فإنما هو منه "[2]

وقد تكرر استعمال مصطلح الحشوية لدى أئمة المعتزلة المتقدمين منهم والمتأخرين ، ومن نماذج ذلك أن أبا بكر ابن أبي داود استأذن في الدخول علي الجاحظ ، فاطلع عليه من كوة في داره وقال له : من أنت ؟ فقال: رجل من أصحاب الحديث ، فقال الجاحظ : أو ما علمت أني لا أقول بالحشوية٣ .

كذلك كتب المأمون إلى نائبه على العراق إسحاق بن إبراهيم الخزاعي كتابا يمتحن العلماء، ويقول فيه : " وقد عرفنا أن الجمهور الاعظم والسواد من حشو الرعية ، وسفلة العامة، ممن لا نظر لهم ولا روية ، أهل جهالة وعمى عن أن يعرفوا الله كنه معرفته ، ويقدروه حق قدره، ويفرقوا بينه وبين خلقه، فساووا بين الله وبين خلقه، وأطبقوا على أن القرآن قديم، لم يخترعه الله "[4] ونسب القاضي عبد الجبار القول بأن القرآن غير مخلوق إلى من سماهم بالحشوية النوابت فقال " ذهبت الحشوية النوابت من الحنابلة أن القرآن المتلو في المحاريب والمكتوب في المصاحف غير مخلوق ولا محدث "[5].

---

[1] – القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٤٢ .

[2]– العسكري : الأوائل ص ١١٦ .

[3] – الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١ / ٥٣٠ .

[4] – الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٨٧ .

[5] – القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ٥٢٧ ، وانظر د.جابر إدريس: مقالة التشبيه ٢ / ١٩٦

وإذا نحينا جانبا الخلاف حول أول من أطلق مصطلح الحشوية ، فسوف نلاحظ أن هذا المصطلح قدر له أن يشيع وينتشر على لسان جل الطوائف الكلامية وصار – كما ذكرنا من قبل – لقبا للذم تطلقه كل فرقة على ما خالفها " فالمعتزلة تسمى من أثبت القدر حشويًا والجهمية يسمون مثبتة الصفات حشوية، والقرامطة كأتباع الحاكم يسمون من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشويا ، كما أن الرافضة يسمون قول أهل السنة والجماعة قول الجمهور، وكذلك الفلاسفة تسمى ذلك قول الجمهور "[١]

وقد امتد الاتهام بالحشو إلى عدد من أئمة المسلمين الذين اتفقت الأئمة على علمهم وجلالتهم وإمامتهم مثل سفيان الثوري و مالك ، والشافعي ، والبخاري ، وغيرهم ، فالنوبختي الشيعي يجعل سفيان الثوري ، وابن أبي ليلي ، ومالك بن أنس ، والشافعي من أهل الحشو [٢] والصاحب ابن عباد المعتزلي وسم البخاري بالحشو ، وقال كما نقل عنه ذلك عدد من المؤرخين الثقات كالذهبي[٣] ، وابن حجر[٤] " ومن البخاري ؟! حشوي لا يعول عليه "[٥]

وثمة مصنفات عديدة ألفت للرد على الحشوية ، وبيان فساد أقوالهم ، ويرجع بعض هذه الكتب إلى فترة متقدمة بعض الشيء ، كما أن أصحابها من مدارس كلامية مختلفة فمنهم الكلابي ، ومنهم الشيعي ، ومنهم الأشعري ، وربما كان من أقدم ما ألف في الرد على الحشوية كتاب المتكلم المشهور عبد الله بن محمد بن كلاب المتوفي سنة ٢٤١ هـ ، والذي تنسب إليه الكلابية ، وهي اتجاه كلامي كان له تأثير واضح على الأشعرية [٦] ، ولابن كلاب مكانة كبيرة في علم الكلام ، وقد وصفه الذهبي بأنه رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه[٧] ، ومن تلامذته المشاهير الحارث المحاسبي وغيره ، كما أن أبا الحسن الأشعري قد تأثر بمذهبه تأثرا واضحا [٨] .

---

[١] – ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٣ / ١٧٦ .
[٢] – انظر النوبختي : فرق الشيعة ص ٧ .
[٣] – الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٧ / ٩٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٦ / ٥١٢ .
[٤] – ابن حجر : لسان الميزان ١ / ٤١٣ .
[٥] – الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٦ / ٥١٢ .
[٦] – انظر د. عبد الرحمن المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١ / ٤٣٨ .
[٧] – الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١ / ٢٠٨ .
[٨] – ابن تيمية : درء التعارض ١ / ٢٤١ ، وانظر ٢ / ١٦ .

وقد صنف ابن كلاب مصنفات عديدة رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم [١] ، والذي يعنينا الآن من كتبه في الرد على المخالفين كتاب يسمى بالرد على الحشوية[٢] ، ولا شك أن تأليف كتاب كهذا في تلك الفترة المبكرة – أوائل القرن الثالث الهجري – يدل على شعور البعض باستفحال الخطر الحشوي ، وضرورة التصدي له .

ومن المصنفات التي دونت في الرد على الحشوية في القرن الثالث الهجري كتاب لأحد علماء الشيعة الاثني عشرية وهو : فضل بن شادان النيسابوري المتوفى سنة ٢٦٠هـ ، واسم كتابه الرد على الحشوية[٣] ، وفي القرون اللاحقة ألفت كتب أخرى في الرد على الحشوية منها كتاب النكت القطعية في الرد على الحشوية للمازري[٤] ، وكتاب تنزيه الإله وكشف فضائح المشبهة الحشوية[٥] لعلي بن محمد التميمي المغربي، الاشعري ، وكتاب الرسائل المرضية فى نصر مذهب الاشعرية ، وبيان فساد مذهب الحشوية للسيد الحسين بن عبد الرحمن العلوى الشافعى المعروف بالأهدل[٦] .

ولم يقتصر الأمر على التأليف العلمي بل امتد أحيانا إلى بعض السلوكيات العملية ومن ذلك ما يذكره نفر من المؤرخين عن بعض الأثرياء الذين أنشأوا مدارس لطلبة العلم ، واشترط شروطا لدخولها منها ألا يدخلها " يهودي ولا نصراني ولا حنبلي حشوي "[٧] ، وقد أبدى أحد علماء الحنابلة المتأخرين – وهو عبد القادر بن بدران – ضيقه وتبرمه من هذا الاشتراط حيث أشار إلى أن " اشتراطه عدم دخول اليهود والنصارى إلى مدرسته علة مفهومة ، وأما اشتراطه عدم دخول حنبلي حشوي فليس بمفهوم ، لان الحنابلة لا يتصفون بهذه الصفة ، وهذا من التعصب الناشئ عن الجهل ، والسعي في تفريق اجتماع هذه الأمة المحمدية "[٨].

المبحث الثالث : عوامل ظهور الاتجاهات الحشوية .

---

[١] – ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٢ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

[٢] – إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ١ / ٢٢٩ .

[٦] – المصدر السابق ١ / ٤٣٢ .

[٤] – المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ١ / ٢٩١ .

[٥] – عمر كحالة : معجم المؤلفين ٧ / ١٨٧ .

[٦] – الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١ / ٢٠٦ .

[٧] – النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ١ / ٢٠١ .

[٨] – عبد القادر بن بدران : منادمة الأطلال ١ / ١٠٠ .

ومن المعروف أن تعليل ظهور مذهب أو اتجاه فكري ما يعد من الأمور العسيرة والمعقدة نظرا لأن نشأة المذاهب المختلفة دائما ما تمثل ظاهرة مركبة ومتشابكة ، يشترك أكثر من عامل في إبرازها للوجود ، ويصعب حينئذ ردها إلى سبب واحد يقال إنه دون سواه كان العنصر الأساسي في وجود هذا المذهب أو ذاك .

وكثيرا ما يعتري العقائد والمذاهب الكثير من التداخل والتركيب والامتزاج ، ويقارنها نوع من ردود الفعل والتأثيرات النفسية ، والتقلبات الفكرية ، كذلك يلاحظ أن الأفكار والمذاهب المتصلة بجانب الاعتقاد تبدأ عادة بصورة بسيطة ساذجة في اللفظ والمعنى ، ثم لا تلبث أن تتعقد وتتفرع ، بل تتغير وتتبدل ، وربما تتناقض وتتضارب ، وتختلف كثيرا عن الهيئة الأولى التي نشأت عليها[١] .

ولا شك أن الكلام المتقدم ينطبق على ظاهرة الحشو كما ينطبق على كافة الاتجاهات الحشوية التي انبثقت عنها ، وسوف نحاول فيما يلي أن نشير إلى عدد من العوامل التي كان لها – فيما يبدو لنا – أثر جوهري وكبير في ظهور الاتجاهات الحشوية المختلفة ، ولاسيما تيارها الأبرز ، وهو تيار التجسيم والتشبيه .

١ – العامل النفسي

ويقصد بهذا العامل أن نفسية عوام الناس وسذاجهم وخصائص شخصيتهم تكون دائما أكثر ميلا واستعدادا لقبول النزعة الحشوية ، وخصوصا فيما يتعلق برواية الموضوعات والقصص والخرافات التي تستهوي عقلية العوام ، وتشبع نهمهم لمعرفة المغيبات في الماضي أو المستقبل ، كما تتناسب مع غريزة حب الحكي والتي تعتبر من الصفات الراسخة لدى أكثر الناس .

وليس بوسع أحد أن يستنكر حب الحكي في ذاته ، أو يقول إن الميل لسماع القصص من الأمور المرذولة أو المستقبحة على عمومها ، فتلك كلها نزعات فطرية لم يأت الشرع بكبتها أو

---

[١] – انظر د. سفر الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ١ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ومحمد العبده وطارق عبد الحليم : المعتزلة بين القديم والحديث ص ١٠١ .

قمعها ، وإنما جاء لترشيدها وتوجيهها الوجهة النافعة والمفيدة لصاحبها ، عقلا وقلبا وعاجلا وآجلا.

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن القرآن الكريم قد راعى هذا الاحتياج الإنساني أشد الاحتياج وكذلك السنة النبوية ، حيث حفلا بالعديد من القصص النافع المفيد ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول سورة يوسف حديثا رواه ابن حبان عن سعد بن أبي وقاص قال : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل الله (الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)إلى قوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)(سورة يوسف : ١-٣) فتلاها عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "[١]

ولكن للأسف الشديد فإن بعض الناس لم يكتف بما في كتاب الله وسنة رسوله من أحسن القصص وأبلغه ، وإنما تطلعوا إلى الإسرائيليات والموضوعات ليشبعوا النهم الإنساني لمعرفة التفاصيل في بعض القصص التي لا يترتب عليها كثير فائدة أو نفع ، ولعل هذا الباب كان من أخطر الأبواب التي دخل منها الحشو ، وتسلسل إلى عدد غير قليل من كتب التفسير والحديث والتاريخ .

وإذا كان هذا الجانب من جوانب العامل النفسي قد أسهم في ظهور الحشو المتعلق بجانب الرواية ، فإن هناك جانبا آخر أشار إليه بعض أهل العلم من القدامى والمتأخرين ويحتاج إلى شيء من النظر والمناقشة ، وخلاصة هذا الجانب هو أن نفسية عوام الناس وطبيعتهم يصعب عليها قبول فكرة التنزيه المحض ، وأن الإله سبحانه وتعالى ليس مشابها للبشر ، أو مماثلا لهم بأي حال من الأحوال ولذا فقد مالوا إلى التشبيه ، وتصوروا صفات الخالق سبحانه على الوجه الذي يماثل صفات المخلوقين .

وقد ترددت هذه الفكرة عند بعض الفلاسفة ، ونفر من المتكلمين[٢] ، كما ترددت عند بعض أساتذة الفلسفة الإسلامية المعاصرين ، ولا بأس أن نسوق عددا من الأمثلة الدالة على هذا الأمر .

---

[١]- رواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠٩) وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده قوي .

[٢]- انظر د. حسن الشافعي : الآمدي وآراؤه الكلامية ص ٣٢٣ .

فابن رشد في كلامه عن الجسميه ، وهل تثبت أم تنفى ؟ ذهب إلى أن " الجمهور يرون أن الموجود هو المتخيل والمحسوس ، وأن ما ليس بمتخيل ولا بمحسوس فهو عدم ، فإذا قيل لهم إن ههنا موجودا ليس بجسم ارتفع عنهم التخيل ، فصار عندهم من قبيل المعدوم ، ولا سيما إذا قيل إنه لا خارج العالم ولا داخله ولا فوق ولا أسفل "[1]

كذلك أشار الرازي إلى أن " القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفي ، فوقع في التعطيل ، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح "[2]

ومن أساتذة الفلسفة المعاصرين نجد الدكتور محمد البهي يذهب إلى أن عقيدة التشبيه لا توجد إلا عند العامة من غير المثقفين ، كما لا تجد رواجا إلا بينهم ، ويعلل ذلك بأن التفرقة بين الغائب والشاهد ، وعدم المماثلة بينهم ترجع إلى ملكة التثقيف أكثر مما ترجع إلى الطبع الإنساني العام ، ولهذا شاعت فكرة تشبيه الإله في الديانات البدائية[3] .

ووفقا لهذا التفسير فإن " العامة عندها الاستعداد لقبول التشبيه ، وطبيعة تفكيرها توحي به والموقظ عندها لعقيدة التشبيه بجوار استعدادها هذا ما يوجد في مصدر عقيدتها من عبارات يعطي ظاهرها المشابهة ، لأنها عبارات اعتيدت أن تقال في بيئة الإنسان ثم استعملت في جانب الإله "[4] وعلى نفس المنوال يرى الدكتور النشار أن " التجسيم أقرب إلى فهم العامة من التنزيه ، وأن يجد صدى لدى الجمهور الأعظم من الناس "[5] .

وربما كان الأخطر من الفكرة السابقة ما زعمه بعض الفلاسفة من أن الأنبياء والرسل قد أخبروا عن الله وعن أمور الغيب مثل الملائكة والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ، لكنهم خاطبوا جمهور الناس وعوامهم بما يتخيلون به ويتوهمونه من أن الله جسمٌ عظيم ، وأن

---

[1] – ابن رشد : مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ١٧١ ، ١٧٢ ، تحقيق د.محمود قاسم .

[2] – الرازي : مفاتيح الغيب ٧ / ١٣٧ .

[3] – انظر د. محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ص ٨٢ ، ٨٣ .

[4] – المصدر السابق ص ٨٣ .

[5] – د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيماً محسوساً، بينما الأمر ليس كذلك ، لأن مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر هكذا، وإن كان هذا كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور إذا كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريق[1] .

وقد صرح ابن سينا بهذه الفكرة بوضوح في رسالته الأضحوية في أمر المعاد حيث قال " أما أمر الشرع فينبغي أن يعلم فيه قانون واحد ، وهو أن الشرع والملل الآتية على لسان نبي من الأنبياء يرام بها خطاب الجمهور كافة ، ثم من المعلوم الواضح أن التحقيق الذي ينبغي أن يرجع إليه في صحة التوحيد من الإقرار بالصانع موحدا مقدسا عن الكم والكيف والأين والمتى والوضع والتغيير ..... ممتنع إلقاؤه إلى الجمهور ، ولو ألقي هذا على هذه الصورة إلى العرب العاربة أو العبرانيين والأجلاف لتسارعوا إلى العناد ، واتفقوا على أن الإيمان المدعو إليه إيمان بمعدوم لا وجود له أصلا "

وبعد هذه المقدمة قرر ابن سينا أن ما ورد في التوراة عن الإله كان " تشبيها كله ، ثم لم يرد في القرآن من الإشارة إلى هذا الأمر المهم – ويقصد التوحيد وفقا للمفهوم الذي قرره – بشيء ، ولا أتى بصريح ما يحتاج إليه بيان مفصل ، بل أتى بعضه على سبيل التشبيه في الظاهر ، وبعضه جاء تنزيها مطلقا عاما جدا لا تخصيص فيه ولا تفسير له ، وأما أخبار التشبيه فأكثر من أن تحصى .... فظاهر من هذا كله أن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون ، مقربا ما لا يفهمون إلى أفهامهم بالتشبيه والتمثيل "[2]

وإذا كان هذا الكلام يتصور صدوره من صاحب اتجاه فلسفي ، لا يلقي بالا لظواهر النصوص ، ويفتح المجال واسعا لتأويلها كي تتفق مع ما يظنه برهانا ويقينا عقليا ، فإن من المستغرب جدا أن تتسلل الفكرة بحذافيرها إلى نفر من المتكلمين حيث نجدهم يقولون بكلام مشابه .

ومن هذا القبيل ما صرح به التفتازاني في شرح المقاصد ، حيث أورد إشكالا مفاده أن الكتب السماوية والأحاديث النبوية مشعرة في مواضع لا تحصى بإثبات الجهة لله ، وليس فيها موضع صريح واحد بنفي ذلك ، وبعد أن أورد هذا الإشكال أجاب عنه جوابا مستغربا فقال " لما كان التنزيه عن الجهة **مما تقصر عنه عقول العامة** حتى تكاد تجزم بنفي ما ليس في الجهة كان

---

[1] ـ انظر ابن تيمية : درء التعارض ١/ ٨ ـ ٩ ، وانظر د. المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢ / ٨١٦ .

[2] – ابن سينا الرسالة الأضحوية في أمر المعاد ص ٤٤ – ٥١ ، وانظر ابن تيمية درء التعارض ٢ / ٣٣٠ ، وابن القيم الصواعق المرسلة ٣ / ١٠٩٨ .

الأنسب في خطاباتهم ، والأقرب إلى صلاحهم ، والأليق بدعوتهم إلى الحق ما يكون ظاهرا في التشبيه ، وكون الصانع في أشرف الجهات ، مع تنبيهات دقيقة على التنزيه المطلق عما هو من سمات الحدوث "[1]

وأقول إنه لا يخفى ما في هذا المبدأ – لو ثبتت صحته – من لوازم وآثار في غاية الخطورة تفتح باب الشك في عصمة الرسول ، وصحة الكتب المنزلة من الله ، ولست أدرى كيف يجوز على نصوص الشرع أن تخبر بما هو مخالف للواقع من أجل تلك المصلحة المزعومة ، وألا يعد هذا من قبيل الكذب والخداع وإيقاع الناس في الضلال ؟ ثم ما الفرق بين تلك التأويلات وتأويلات الباطنية التي تجعل الدين كله بعقائده وعباداته من قبيل الرموز والأسرار وكل ما اشتمل عليه من ظواهر غير مراد بحال .

ومن تطبيقات المنهج المذكور تأويل جماعة من المتكلمين – سواء من المعتزلة أو الأشاعرة – لقوله تعالى (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)(سورة الملك : ١٦) بأن الآية لا تدل على علو الله على خلقه ، وإنما وردت وفقا لاعتقاد العرب أن الله في السماء .

فمن تأويلات المعتزلة للآية قول الزمخشري " إنهم – أي العرب – كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء ، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنه في السماء ، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب ، كما تقول لبعض المشبهة : أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل ، إذا رأيته يركب بعض المعاصي "[2]

ومن تأويلات الأشاعرة قول الرازي " كانت العرب مقرين بوجود الإله ، لكنهم كانوا يعتقدون أنه في السماء على وفق قول المشبهة ، فكأنه تعالى قال لهم : أتأمنون من قد أقررتم بأنه في السماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم "[3] .

---

[1]– التفتازاني : شرح المقاصد في علم الكلام ٢ / ٦٧ .

[2] ـ الزمخشري : **الكشاف** ٤ / ٥٨٥ .

[3] ـ الرازي : مفاتيح الغيب ٣٠ / ٥٩٢ .

ولا شك أن مثل هذا التأويل غير صحيح بالمرة إذ إن السياق لا يشهد له ، ونصوص القرآن ونصوص السنة مليئة بإثبات علو الله على خلقه ، كما أن تأويلا كهذا يفتح الباب للي أعناق النصوص ، والزعم بأن المراد منها ليس ما تفيده دلالات اللغة ، وإنما سيق ذلك كله وفقا لاعتقادات المخاطبين من مشركي العرب ، ومراعاة لسذاجة عقولهم ، وضحالة تفكيرهم وعدم قدرتهم على استيعاب مبدأ تنزيه الذات الإلهية .

٢ – الغلو في رد الفعل

ونعني بذلك أنه قد يحدث أحيانا أن يتبنى مذهب أو فرقة كلامية ما اعتقادا معينا ، ويسرف في تبنيه والدعوة إليه ، مما يؤدي إلى ظهور فرقة آخر تتبنى الاعتقاد المضاد تماما ، وتقابل الغلو السابق بغلو مماثل أو أشد .

والغلو إلى أحد الطرفين المتقابلين ظاهرة بشرية ، وسمة عامة قلما يخلو منها أحد إلا قلة قليلة من الناس ، ومن المشاهد أن " النفوس البشرية لا تنضبط دائما على المنهج العدل الوسط بل تجنح عنه ذات اليمين أو ذات الشمال ؟ إما الإيغال المهلك ، وإما التفريط المسرف ، وقد وقعت الخوارج في الأول ، كما وقعت المرجئة في الآخر ، وإنما تنضبط النفوس بالتزكية المستمرة والتقويم الدائب ، كما حصل للجيل الأول ، ولهذا تمثلت فيه حقيقة الأمة الوسط في كل شيء"[١] .

وفيما يتعلق بالفرق الكلامية فمن النادر أن نجد فرقة لم تغل في أصل أو مسألة ما ، وتطلق لسانها في المخالفين سبا وشتما ، وقد انتبه القاسمي إلى هذا المسلك حيث ذكر " أن كل طائفة قوي شأنها ، وكثر سوادها لابد أن يوجد فيها الأصيل والدخيل ، والمعتدل والمتطرف والغالي والمتسامح ، وقد وجد بالاستقراء أن صوت الغالي أقوى صدى وأعظم استجابة ، لأن التوسط منزلة الاعتدال ومن يحرص عليه قليل في كل عصر ومصر ، وأما الغلو فمشرب الأكثر ورغيبة السواد الأعظم ، وعليه درجت طوائف الفرق والنحل ، فحاولت الاستئثار بالذكرى ، والتفرد بالدعوى ، ولم تجد سبيلا لاستتباع الناس لها إلا الغلو بنفسها ، وذلك بالحط من غيرها ، والإيقاع بسواها ، حسب ما تسنح لها الفرص ، وتساعدها الأقدار إن كان بالسنان أو اللسان "[٢] .

---

[١] -د. سفر الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ١ / ٣٠٠ .

[٢] – القاسمي : الجرح والتعديل ص ١٢ ، ١٣ ، تحقيق محمد عبد الحكيم القاضي .

والغلو في الأشخاص يعد من أبرز الأسباب وراء نشوء القول بالتشبيه ، وقد درج علماء الفرق على إطلاق اسم الغالية على القائلين بالتشبيه والغلو في منزلة الأئمة[١] ، وكما يقول الشهرستاني " الغالية : هؤلاء هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق وهم على طرفي الغلو والتقصي "[٢]

وللغلو مظهر آخر وأعني به الغلو في رد الفعل على المخالفين في الرأي ، وفي ظني أن ثمة قانونا فكريا مطردا ، يشبه كثيرا القانون الشهير في عالم المادة ، وهو أن لكل فعل رد فعل يقابله ، يساويه في المقدار ، ويضاده في الاتجاه ، وتطبيقا لهذا القانون يمكننا القول بأن عقلانية المعتزلة المفرطة استدعت ظهور الأشاعرة ، وغلو الخوارج استدعى تفريط المرجئة وإسراف الجبرية في نفي القدرة الإنسانية استدعى غلوا مقابلا عند القدرية ، وتجسيم المشبهة استدعى تعطيل الجهمية ، وغلو الشيعة في أهل البيت استدعى ظهور النواصب ، وهكذا الحال في أمثلة كثيرة يلحظها المطالع للفكر الكلامي[٣] ٠

كذلك يلاحظ أن ردود الأفعال قد تسير فيما يشبه الدورات التاريخية المتتالية ، فنزعات التشبيه الأولى جاءت ردا على التجهم ، ثم ظهر الاعتزال في فترة انتشر فيها التجسيم والتشبيه عند بعض الاتجاهات المغالية ، وطوائف من الشيعة، مثل مقاتل بن سليمان الذي نُقلت عنه أقوال في غاية الخطورة[٤] ، كما لا ننسى تبني الشيعة الأوائل لنظرية التجسيم التي يعد هشام بن الحكم أبرز ممثليها[٥]، ثم توالت نزعات أخرى من التشبيه والحشو ردا على إسراف المعتزلة في التنزيه .

وقد ظهرت آثار ردود الأفعال المغالية في جانبين مهمين :-

<u>الجانب الأول :</u> المبالغة في التشبيه والتجسيم – وهما من أبرز مظاهر الحشو – ردا على مبالغة الجهمية والمعتزلة في النفي والتنزيه ، وقد نبه على هذا المعنى الكثير من أهل العلم في عصور

---

[١] – انظر د. جابر إدريس : مقالة التشبيه ١ / ١٨٧ .

[٢] – الشهرستاني : الملل والمحل ١ / ١٧٢ .

[٢]– انظر أحمد قوشتي : خصائص الشخصية المصرية ومدى تأثيرها على ظهور الاتجاهات الكلامية وانتشارها ص ٥٩ .

[٣]– انظر : الأشعري مقالات الإسلاميين ص١٥٢، ١٥٣، وعبد القاهر البغدادي الفرق بين الفرق ص٢٢٧ .

[٤]– انظر : د. النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/٢٨٩-٣٠٦ .

تاريخية مختلفة[1] ، ومن المعروف أن المعتزلة في تصورهم لصفات الله ، أو ما يعرف لديهم بمبدأ التوحيد قد أسرفوا في جانب التنزيه أو السلب ، وكادوا أن يجردوا الذات الإلهية من كل صفة سوى السلوب ، وكما حكى الأشعري في المقالات – وقد عاش حقبة طويلة من حياته معتزليا ، وكان خبيرا بالمذهب وآرائه – فإن المعتزلة قد أجمعت " على أن الله واحد ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذي لون ، ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذي حرارة ولا برودة ، ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ، ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، وليس بذي أبعاض وأجزاء ، وجوارح وأعضاء "[2]

وليست المعتزلة بأول من ذهب إلى هذا الإسراف في النفي للصفات ، وتغليب جانب التنزيه على الإثبات فقد سبقهم – بل فاقهم – في هذا الغلو اتجاهات كلامية أخرى ، لعل أبرزها الجهمية المنتسبون لجهم بن صفوان ، ومع أنه ليس بين أيدينا شيء ذو بال من كتب الجهمية ، إلا أن إسرافهم في النفي يعد من الأمور المتفق عليها بين سائر مؤرخي الفرق وقد نسبوا إليهم القول بأن الله تعالى لا يوصف بأنه شئ ، أو حي أو عالم أو مريد ، وقالوا لا نصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره كشيء موجود ، وحي وعالم ، ومريد ونحو ذلك[3] .

ومن الملاحظات التي تجدر الإشارة إليها هنا أن هناك نوعا من ردود الفعل المتبادلة بين كل من الجهمية – ثم المعتزلة فيما بعد[4] – وبين المشبهة ، لا سيما وأن جهم بن صفوان ومقاتل بن سليمان كانا متعاصرين ، بل جرت بينهما مناظرات ، وكما يقول الذهبي فقد " قدم مقاتل مرو ،

---

[5] – انظر ابن قتيبة : الاختلاف في اللفظ ص ٤٠ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ٦ / ٥١ ، والمقريزي : الخطط ٢ / ٣٤٨ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٥ .

[2] – الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ١٥٥ ، وانظر ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٦٩ ، ٧٠ .

[3] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٢٨٠ ، والاسفراييني : التبصير في الدين ص ١٠٨ وعبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩٩ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ٨٥ ، ود.النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٥٠ .

[4] – انظر الكوثري : مقدمة تبيين كذب المفتري ص ١٢ ، ١٣ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٤٢٢ ، ٤٢٩ .

فتزوج بأم أبي عصمة نوح بن أبي مريم ، وكان يقص في الجامع ، فقدم عليه جهم فجلس إليه ، فوقعت العصبية بينهما ، فوضع كل واحد منهما على الآخر كتاباً ينقض على صاحبه "[1]

وقد أشار إلى هذا الغلو المتبادل بين جهم ومقاتل عدد من أهل العلم منهم أبو حنيفة رحمه الله ، وقد ذكر عنده الرجلان فقال " كلاهما مفرط ، أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال إنه ليس بشيء ، وأفرط مقاتل حتى جعل الله مثل خلقه "[2] وقال أيضا " أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم معطل ومقاتل مشبه "[3] .

وفي لفتة مهمة جدا تكشف بوضوح عن أثر رد الفعل في ظهور فكرة التشبيه ذكر ابن قتيبة أن إفراط النفاة في التعطيل دفع ببعض الناس إلى أن يعارضوهم " بالإفراط في التمثيل فقالوا بالتشبيه المحض وبالأقطار والحدود ، وحملوا الألفاظ الجائية في الحديث على ظاهرها وقالوا بالكيفية فيها ، وحملوا من مستشنع الحديث عرق الخيل ، وحديث عرفات ، وأشباه هذا من الموضوع ، ما رأوا أن الإقرار به من السنة وفي إنكاره الريبة "[4] .

ويتكرر معنى قريب من هذا عند الآمدي الذي أشار إلى نزعة الغلو عند المشبهة والمعطلة على السواء فقال " فانظر إلى هاتين الطائفتين ، كيف التزم بعضهم التعطيل خوف التجسيم والتزم بعضهم التجسيم خوف التعطيل ، ولسان الحال ينشد على لسان الفريقين ، ويعبر عن حال الجمعين وقالت اليهود ليست النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ "[5]

ومن الدارسين المحدثين نجد د. النشار – رغم تعاطفه الذي لا يخفى مع جهم بن صفوان ووصفه بأنه شخصية من أكبر شخصيات الإسلام[6] – يقر بأنه قد تغالى في التنزيه قدر تغالي أعدائه في الحشو والتشبيه والتجسيم[1] .

---

[1] – الذهبي : تاريخ الإسلام ٩ / ٦٤١ ، وانظر ميزان الاعتدال ٦ / ٥٠٥ .

[2] – ابن عساكر تاريخ دمشق ٦٠ / ١٢٢ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٩ / ٦٤١ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٥١ .

[3]– الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٣ / ١٦٦ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق ٦٠ / ١٢٢ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٥١ .

[4] – ابن قتيبة : الاختلاف في اللفظ ص ٤٠ .

[5] – الآمدي : غاية المرام ص ١١٢ ، وانظر د. حسن الشافعي : الآمدي وآراؤه الكلامية ص ٢٧٩ .

[6]– انظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٣٣٣ .

وهكذا نخلص إلى القول بأن المبالغة في أحد الطرفين الإثبات أو التنزيه تؤدي إلى مبالغة وغلو في الطرف الآخر ، والواجب هو التوسط بينهما ، وقد نبه كثير من أهل العلم على هذه الحقيقة ، وأشاروا إلى أن الإسراف في التنزيه أو الإثبات يؤدي إلى الوقوع في المحذور ومن العجيب أن يأتي مثل هذا الاعتراف من شخصية أشعرية شهيرة ، بالغت في تأويل نصوص الإثبات ، وصرفها عن ظواهرها ، وأعني بذلك فخر الدين الرازي[2] ، والذي صرح في تفسيره بأن الصراط المستقيم يتمثل في الإقرار الخالي عن التشبيه والتعطيل[3] فقال " من توغل في التنزيه وقع في التعطيل ونفي الصفات ، ومن توغل في الإثبات وقع في التشبيه وإثبات الجسمية والمكان ، فهما طرفان معوجان ، والصراط المستقيم الإقرار الخالي عن التشبيه والتعطيل "[4] .

<u>وأما الجانب الثاني</u> : الذي ظهرت فيه آثار رد الفعل فيتمثل في المبالغة في جمع المرويات والاحتجاج بها حتى لو كانت واهية أو موضوعة ، ردا على مبالغة بعض الفرق في رد المرويات وتكذيبها أو تأويلها .

ومن المعروف أن المحدثين ابتلوا بانتساب جماعة من عوام الرواة وعديمي التحقيق إليهم وقد هالهم ما رأوه من إنكار بعض الفرق كالجهمية والمعتزلة وطوائف من المتكلمين لجم غفير من أحاديث السنة ، والتعامل معها بمسالك مختلفة تؤول في نهاية المطاف إلى ردها صراحة أو تأويلا .

فمن هذه الفرق من رفض السنة بالكلية ، ومنهم من اقتصر على قبول المتواتر ورد أخبار الآحاد مطلقا ، ومنهم من توسع في تأويل النصوص وفرغها من معانيها ، وحملها على مدلولات أخرى بعيدة كل البعد عن دلالاتها الظاهرة .

ولم يخل الأمر من وجود نزعات مسرفة في الغلو ، ردت بعض الأحاديث بأساليب منكرة ومستفزة جدا ، وصادمة لعقول وقلوب المؤمنين ، كما أنها لا تخلو من تجاوز للأدب في التعامل

---

[1]- المصدر السابق ١ / ٣٣٥ .

[2] – وكتابه أساس التقديس نموذج واضح لهذا المسلك .

[3] – انظر الزركان : فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

[4] – الرازي : مفاتيح الغيب ١ / ٢٦ .

مع مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن نماذج ذلك ما حكي عن عمرو بن عبيد[1] أنه سمع حديث ابن مسعود أنه قال " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها [2]"

وقد رد عمرو هذا الحديث بأسلوب غاية في الفجاجة ، فقال " لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته ، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته ، ولو سمعت ابن مسعود يقوله ما قبلته ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ليس على هذا أخذت ميثاقنا "[3]

كذلك رد عمرو بن عبيد حديث الحسن عن سمرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسكت سكتتين في الصلاة ، فقال ما تصنع بسمرة قبح الله سمرة[4] ، والغريب حقا أن هذا الحديث يتضمن حكما فقهيا ، لا مجال للقول بتعارضه مع العقل من قريب أو بعيد .

وفي مسلك مشابه أنكر النظام انشقاق القمر، وطعن في رواية ابن مسعود ، واصفا إياها بالكذب الذي لا خفاء به [5] كذلك نقل الجاحظ عن النظام أنه عاب على المحدِّثين روايتهم الأحاديث التي تحكم بنجاسة سؤر الكلاب، وتأمر بقتل بعض أنواعها؛ كالكلب العقور والكلب

[1] – انظر د.سليمان الغصن : موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ١ / ٢٣٩ ، ود.محمد صالح السيد : عمرو بن عبيد وآراؤه الكلامية ص ١٢٠ .

[2] -رواه البخاري (٢٩٩٦) ومسلم (٤٧٨١)

[3] – انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٢ / ١٧٠ ، والمزي : تهذيب الكمال ٢٢ / ١٢٩ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٩ / ٢٣٩ ، وميزان الاعتدال ٥ / ٣٣٣ .

[4] – انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٢ / ١٧٠ ، والذهبي : ميزان الاعتدال ٥ / ٣٣٣ .

[4]– ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ص٤٨، ٤٩.

الأسود، ثم تحكم بطهارة الهرة وكونها من الطوافين والطوافات ، مع أن الكلب من جهة نظره العقلية أعظم منفعة من السنور ![1]

ولست أدرى حقا ما وجه الإشكال في الحديث ، والقضية ليست التفضيل بين منافع الكلاب أو القطط ، وإنما الحكم بطهارة هذا ونجاسة ذلك ، وهي مسألة تعبدية في المقام الأول ، ثم إن الأبحاث العلمية الحديثة قد أثبتت اشتمال لعاب الكلب على أنواع من الجراثيم والميكروبات ولابد من غسلها .

وفي ظل ما سبق كله جاءت ردود الأفعال من جهلة الرواة ، ومن الكذابين والوضاعين لتسرف في رواية أحاديث باطلة سندا ومتنا ، وتؤلف الكتب لنشرها وترويجها ردا على هذا الغلو من منكري الأحاديث أو الطاعنين فيها ، وهو أمر أشار إليه الكثير من أهل العلم[2] .

وإذا كان المتكلمون قد ردوا أحاديث الصفات ، فلا مانع من رواية مئات الأحاديث الواهية والموضوعة ردا عليهم ، وإذا كانوا قد أنكروا المعجزات الحسية فلا ضير من نقل عشرات الأحاديث المكذوبة في هذا الباب ، وفي غيره من الأبواب التي أنكر المتكلمون ما صح فيها فجاء هؤلاء وقابلوا غلوهم في إنكار ما ثبت بغلو مقابل متمثل في رواية كل ما وقفوا عليه حقا كان أو باطلا ، وصحيحا كان أو موضوعا .

وقبل أن نترك الكلام عن رد الفعل ، وأثره في نشوء ظاهرة الحشو ، نود أن نشير إلى أن رد الفعل قد دفع بعضا من علماء الحديث – الذين هم أبعد الناس عن الحشو والحشوية – إلى نوع من التساهل في رواية ما لم يصح سندا – ويبدو أنهم ظنوا صحته – ثم رتبوا على ذلك حكما عقديا ليس معهم من صحيح الأدلة ما يثبته ، فضلا عما يثيره من إشكالات وشبه ، وفتح الباب لطعون من المخالفين ما كان أغناهم عنها .

والمثال الذي أعنيه هنا هو مسألة إقعاد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم على عرشه يوم القيام والزعم بأن هذا هو المراد بالمقام المحمود الذي وعده الله نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)(سورة الإسراء : ٧٩) اعتمادا على قول مجاهد في تفسير المقام المحمود الوارد في الآية بأن الله يجلس نبيه صلى الله

---

[1] – الجاحظ: الحيوان ٢/٥٥.

[2] – انظر ابن قتيبة : الاختلاف في اللفظ ص ٢٠ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ٤ / ٢٣ ، و الذهبي : العلو للعلي الغفار ص ١٧١

عليه وسلم على عرشه ، وقد تبنى القول بذلك عدد غير قليل من أصحاب الحديث منهم – كما ذكر ابن القيم – أبو داود ، وأحمد بن أصرم ، ويحيى بن أبي طالب ، وإسحاق بن راهوية ، وإبراهيم الحربي وهارون بن معروف ، والحسن بن فضل ، وعبد الله ابن الإمام أحمد ، والمروزي ، وبشر الحافي وابن جرير الطبري ، وأبو الحسن الدارقطني[١] .

ولعل من قال بذلك الرأي أراد الرد على نفاة استواء الله على عرشه من المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، فجنح به رد الفعل إلى القول بما لم يصح ، ويشهد لذلك ما نقل عن أبي داود السجستاني أنه قال من رد حديث مجاهد فهو جهمي٢ ، وقال محمد بن عبد الملك الدقيقي سمعت هذا الحديث منذ خمسين سنة ، ما سمعت أحدا ينكره ، إنما يكذبه الزنادقة والجهمية٣ .

ومن الغلو في هذه المسألة ما نسب إلى أحد الفقهاء أنه قال " لو أن حالفا حلف بالطلاق ثلاثا أن الله يقعد محمدا على العرش واستفتاني لقلت له صدقت وبررت "٤ وقد عقب الذهبي على رأيه هذا بكلام مهم حيث قال " فأبصر حفظك الله من الهوى كيف آل الغلو بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر ، واليوم فيردون الأحاديث الصريحة في العلو ، بل يحاول بعض الطغام أن يرد قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(سورة طه : ٥)"٥

ومع أن الحديث الوارد في هذا الباب لا يصح مرفوعا[٦] كما أن هذه المسألة ليست محل اتفاق بين السلف ، بل كما يقول ابن تيمية " قال طوائف من السلف والخلف إنه يقعده معه على العرش ، وأنكر ذلك آخرون "[٧] إلا أن التعصب في التعامل معها أدى إلى وقوع فتنة كبيرة في القرن الرابع الهجري ، حين ألف أبو بكر المروزي الحنبلي كتابا في فضيلة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فيه إقعاده على العرش .

---

[١] – انظر ابن القيم : بدائع الفوائد ٤ / ٨٤١ .
[٢] – ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٢ / ١٠ .
[٣] – المصدر السابق ٢ / ١٠ .
[٤] – الذهبي : العلو للعلي الغفار ص ١٧١ .
[٥] – المصدر السابق ص ١٧١ .
[٦]– انظر ابن تيمية : درء التعارض ٥ / ٢٣٧ .
[٧] – ابن تيمية : الإستغاثة في الرد على البكري ٢ / ٥٣٩ .

وقد تسبب هذا الكتاب في حدوث فتنة مؤسفة ، كما يقول ابن كثير " وقعت فتنة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروذي الحنبلي ، وبين طائفة من العامة اختلفوا في تفسير قوله تعالى (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)(سورة الإسراء :٧٩)فقالت الحنابلة يجلسه معه على العرش ، وقال الآخرون المراد بذلك الشفاعة العظمى ، فاقتتلوا بسبب ذلك ، وقتل بينهم قتلى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون "[١]

وفي رأيي أن أثر مجاهد وهو العمدة في هذه القضية كلها لم يصح سندا ، وحتى لو صح فهو رأي تابعي لا يثبت بمجرد كلامه عقيدة كهذه ، فضلا عن أن ما صح في تفسير الآية هو حديث آخر يفيد أن المقام المحمود يراد به شفاعته العظمى صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف ، وهذا القول في تفسير الآية هو الثابت عن مجاهد نفسه[٢] وهو الذي صححه ابن جرير في تفسيره[٣] والقرطبي[٤] ولم يذكر ابن كثير غيره[٥] .

وطالما أن الأثر لم يصح فكان الأولى الإعراض عنه بالكلية ، والاكتفاء بما صح وعدم إثبات عقيدة كهذه بأثر واه السند ، لا سيما أن ما تضمنه من إقعاد النبي على العرش لم يثبت في آية أو حديث ، وهو يفتح الباب لاتهام المحدثين بالحشو والتجسيم كما فعل ذلك نفر من القدامى[٦] والمحدثين[٧] ، بل ذهب الدكتور النشار إلى أن هذا الحديث " أثر أكبر الأثر في الحشوية والمشبهة "[٨] مع أنني لا أعتقد أن الأمر كان بهذه المثابة ، وليس هذا الأثر – مع إقرارنا– بعدم صحته سوى واحد من بين ركام هائل من الأحاديث والآثار الموضوعة والضعيفة والتي تصدى لها جهابذة المحدثين بالتفنيد والإبطال .

---

[١] – ابن كثير البداية والنهاية ١١ / ١٦٢ ، وانظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧ / ٥٧ ، وأبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ / ٢٠٠ .

[٢] – انظر الألباني: مختصر العلو للذهبي ص ١٧ .

[٣] – انظر الطبري : تفسير الطبري ١٧ / ٥٢٩ .

[٤] – انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٣٠٩ .

[٥] – انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٥ / ١٠٣ ، والبداية والنهاية ١١ / ١٦٢ .

[٦] – انظر ابن الجوزي : دفع شبه التشبيه ص ٢٤٦ .

[٧] – انظر الكوثري : مقدمة تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٤ ، والتعليق على الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص ٤٠ .

[٨] – د.النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٨٩ .

ومما يجدر ذكره هنا أن واحدا من أبرز علماء الحديث المعاصرين وهو الشيخ الألباني رحمه الله قد استفاض في بيان ضعف هذا الحديث مرفوعا وموقوفا[1] ، كما انتقد تعامل كل من الحافظ الذهبي وابن القيم مع هذه القضية ، وعدم اتخاذ موقف حاسم بشأنها ، فقال منتقدا الذهبي الذي ضعف الأثر تارة ومرره تارة أخرى " كنت أحب له رحمه الله أن لا يتردد في إنكار نسبة القعود إلى الله تعالى ، وإقعاده محمدا صلى الله عليه وسلم على عرشه ما دام أنه لم يأت به نص ملزم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه ليس له شاهد في السنة ، ومعناه ولفظه لم يتوارد على ألسنة الأئمة "[2]

٣- العامل الخارجي

ولا شك أن العامل الخارجي يعتبر عنصرا أساسيا في نشأة كثير من الآراء والفرق المختلفة وثمة شواهد كثيرة على ذلك ، وإن بقي الخلاف في تقدير دوره ، وهل كان له الغلبة في تأسيس هذه الفرقة أو تلك ، أم أن العوامل الداخلية كانت أغلب ، وليس للعامل الخارجي سوى تأثير طفيف .

وفيما يتعلق بظهور الحشو والحشوية ، فهناك تفاوت واضح بين الدارسين في قيمة هذا العامل ، فهناك من يرى أن فكرة التشبيه والتجسم – وهي أبرز مظاهر الحشو – إذا نظر إليها في صورتها العقلية الكلامية فإنها تعد " انبثاقا ذاتيا للتفكير الإسلامي نفسه ، وليست وليدة التأثير اليهودي في نشأتها ، لأن هذه الفكرة ليست خاصة باليهود وحدهم ، بل هي من الأفكار المشتركة بين أصحاب الديانات عندما يحاولون الكلام في ذات الإله ، وتحديد صفاته وبيان علاقته بالإنسان "[3] .

ومن خلال المفهوم السابق يكون التجسيم فكرة فلسفية يمكن أن تظهر في أي ثقافة أو حضارة ، ولذا ذهب البعض إلى أن الكرامية – وهي من أبرز الفرق القائلة بالتجسيم – ليست مدرسة دينية فحسب ، وإنما هي مدرسة فلسفية أيضا ، والفارق بين المدرسة الدينية الكلامية والمدرسة الفلسفية في هذه المسألة هو أن المدرسة الكلامية قد تشبه الذات الإلهية بغيرها من الموجودات

---

[1] – انظر الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٥) ومختصر العلو للذهبي ص ١٥ ، ود.عبد الرحمن الفريوائي : شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه ٢ / ٦١ ، ٦٢ ، وعمرو عبد المنعم سليم : المنهج السلفي عند الشيخ ناصر الألباني ص ١٣٢ .

[2] – انظر الألباني : مختصر العلو للذهبي ص ١٩ .

[3] – د. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٣٠٥ .

بناء على فهم ما للنصوص ، لكنها لا ترى أن الله جسم بالفعل ، أما المدرسة الفلسفية فترى أن الله ليس شبيها بالأجسام وإنما هو جسم بالفعل[1] .

وقد مضى بعض الدارسين خطوة أبعد في تفسير نشأة التجسيم حينما رأي أنه ليس من اللازم أن نبحث عن مصدر أجنبي يكون هو الأساس في القول بالتجسيم ، ثم علل ذلك بأن " التجسيم كالتنزيه تماما لا يحتاج إلى مصدر خارجي للقول به ، إذ هو فكرة طبيعية وشعور فطري في قلب وعقل من يصرح به ، ولا يستوجب ذلك البحث عن مصدر آخر غير الفطرة والطبيعة "[2]

وفي ظني أنه يصعب استساغة القول بأن التجسيم شعور فطري ، فالنفس السوية تأباه والفطرة الصحيحة تقتضي وصف الإله بجميع الكمالات ، وتنزيهه عن شتى النقائص ، ومن أوضحها مشابهة البشر ، بكل ما في صفاتهم من عجز ونقص وقصور .

وخلافا للوجهة السابقة التي تعلي من شأن العوامل الذاتية ، فإن ثمة فريقا آخر قد بالغ في أثر العامل الخارجي ، وجعله السبب الرئيس في ظهور الحشو ، ومن هؤلاء[3] الكوثري الذي أرجع نشأة الحشو إلى شرذمة من أحبار اليهود ورهبان النصارى وموابذة المجوس " أظهرو الإسلام في عهد الراشدين ، ثم أخذوا بعدهم في بث ما عندهم من الأساطير بين من تروج عليهم ، ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم ، فتلقفوها منهم ورووها لآخرين بسلامة باطن ، معتقدين ما في أخبارهم في جانب الله من التجسيم والتشبيه ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد في جاهليتهم ،وقد يرفعونها افتراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم خطأ ، فأخذ التشبيه يتسرب إلى معتقد الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة " "[4]

ومن الأمور التي تدعو للتأمل وتعضد فكرة الأثر الخارجي ارتباط نزعة الحشو – ممثلة في فكرة التجسيم والتشبيه ، ووضع الأحاديث المكذوبة – ببعض المدن التي عرفت بكونها ملتقى للحضارات والثقافات الوافدة .

[1] – انظر د. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٥٦ .

[2] – د.سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ٨١ .

[3]– وقد نقل البعض كلام الكوثري هذا مرتضين إياه فانظر د.النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٨٧ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٢٣ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٢٨٢ .

[4] – الكوثري : مقدمة تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٠ .

ومن أشهر الأمثلة في هذا الصدد مدينة خراسان ، والتي كانت موطنا خصبا للمجسمة والحشوية ، كما أنها كانت موطنا للتعطيل والتجهم ، وقد اشتهرت بأنها ملتقى للمذاهب الغنوصية القديمة ، وفيها برزت ظاهرة وضع الأحاديث ، ومنها خرج الجهم بن صفوان و مقاتل بن سليمان ، كما تلقي العلم فيها ابن كرام زعيم طائفة الكرامية[1] ، ولا شك أن خروج تلك المذاهب والاتجاهات المتضاربة من مدينة واحدة يشي بوجود تأثيرات ثقافية وحضارية ما أثرت بصورة أو بأخرى على فكر أبنائها ، والمذاهب التي تبنوها .

وبعد أن عرضنا الوجهتين السابقتين في بيان علة نشوء الحشو فيبقى من المهم أن نشير إلى أن مسألة التأثير والتأثر لا تعدو أن تكون مجرد فرض أو احتمال ظني لا يمكن القطع فيه برأي حاسم حتى نقف على معلومات أكثر ومصادر أوثق تثبت هذا الفرض أو تنفيه[2] ، وقد تكون الشواهد على إثبات التأثير قوية أو قريبة من اليقين في بعض الأحوال ، وقد تكون مجرد ظنون واحتمالات في أحوال أخرى .

وفي رأيي أن رد نزعة الحشو – وشأنها في ذلك شأن غيرها من الظواهر الفكرية– إلى عامل واحد فحسب أمر غير دقيق ، والأقرب أنها نتاج لمزيج من العوامل الداخلية والخارجية وإن كان العامل الخارجي يبدو أوضح تأثيرا ، لا سيما في مجال وضع الحديث وفكرة تجسيم الذات الإلهية المتأثرة بالعقائد اليهودية .

وفيما يتعلق بالعامل الخارجي فثمة أكثر من رافد له ، **أولها العنصر اليهودي** وقد برز تأثيره بوضوح في جانب التجسيم والتشبيه من جهة ، وفي جانب شيوع الموضوعات والإسرائيليات من جهة أخرى .

ومن المعروف أن التوراة مكتظة بالتشبيه والتجسيم ووصف الخالق سبحانه وتعالى بالصفات البشرية ، فالإله في التوراة على صورة البشر ، سريع الغضب ، كثير الندم ، يحزن ويبكي

---

[1] – انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٨ / ٤١٦ ، ١٦ / ٤٣٧ ، ٢٠ / ٣٠٠ ، ود.ناصر العقل : دراسات في الأهواء والفرق والبدع ص ١٩٠ ، ود.سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ٥٥ ، ٨٢ .

[2]– د. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٢٨٤ .

ويتأسف على أفعاله ، ويخادع ويخاتل ، ولا يعلم العواقب ، ويصارع البشر ، وهو ليس رب العالمين جميعا ، بل رب شعب إسرائيل ابنه البكر[١] .

ومن نصوص التوراة الدالة على ذلك ما جاء في سفر التكوين من أن الإله بعد أن فرغ من الخلق استراح " و فرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل "[٢] كذلك تظهر التوراة الإله في صورة منكرة حينما أكل آدم من الشجرة ، حيث يمشي كالبشر في الجنة ولا يعلم أين مكان آدم ولا يعلم هل أكل من الشجرة أم لا[٣] ، كما أن الرب في التوراة ينزل إلى الأرض نزولا حسيا[٤] ، وقد صارع يعقوب مثل مصارعة البشر بعضهم بعضا[٥] ، كما أن بني إسرائيل رأوه في صورة حسية [٦] ، بل إن الرب كان يسير أمام بني إسرائيل[٧] .

ولا أظن أن هناك منصفا – يقف على النماذج السابقة وهناك الكثير غيرها – بوسعه أن يجادل في أن العهد القديم قد اشتمل على آيات كثيرة تصور الإله بصورة مادية بشرية وليس من المستبعد بحال أن تكون من تأثير التصورات الوثنية لمعبودات وآلهة شعوب المنطقة الذين اختلط بهم اليهود ، وقد أخبر القرآن عنهم بما يدل على سرعة ميلهم لعبادة الأوثان ، وتأثرهم بالأمم الأخرى فقال تعالى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)(الأعراف : ١٣٨) ثم لما ذهب موسى للقاء ربه عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري ولما يلتفتوا إلى تحذير هارون عليه السلام لهم (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)(الأعراف : ١٤٨)

---

[١] – انظر د. محمد علي البار : الله والأنبياء في التوراة ص ١٣ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٠٨ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ٣٠ ، و د. علي المغربي : الفرق الكلامية الإسلامية ص ٧٦ .

[٢] – سفر التكوين (٢ : ٢)

[٣] - سفر التكوين (٣ : ٨ – ١٣)

[٤] – سفر العدد (١٢ : ٥-٦)

[٥] – سفر التكوين (٣٢- ٢٤ – ٣٠)

[٦] – سفر الخروج (٢٤ : ١٠)

[٧] – سفر الخروج (١٣ : ٢١)

لكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه عندما نطالع هذه الآراء اليهودية هو مدى تأثيرها على الاتجاهات الحشوية القائلة بالتجسيم والتشبيه ، وهل تسربت إليهم فعلا وظهرت بصورة واضحة فيما تبنوه من آراء ؟

ومن الملاحظ أن الكثير من علماء الفرق والمتكلمين القدامى وكذا جماعة من الدارسين المحدثين[١] قد مالوا إلى إثبات التأثير اليهودي في ظهور نزعة التجسيم ، بل ذهب غالبهم إلى تضخيم هذا التأثير ، حتى إنهم أرجعوا معظم آراء المجسمة إلى مصدر يهودي ، ورأوا أن كل من قال في دولة الإسلام بشيء من التشبيه فقد نسج على منوال اليهود ، واقتبس منهم ، وأن مشبهة المسلمين إنما صاغوا آراءهم على مثال ما قال مشبهة اليهود ، وممن قال بذلك الشهرستاني والذي جزم بأن أن أكثر ما لدى الحشوية من روايات التشبيه إنما هو مقتبس " من اليهود ، فإن التشبيه فيهم طباع حتى قالوا : اشتكت عيناه فعادته الملائكة وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه "[٢] وذهب الإسفراييني إلى أن هشام بن الحكم ومن قال بقوله في التجسيم إنما " أخذوا تشبيهم من اليهود "[٣] وأرجع الآمدي مذهب الكرامية القائل بأن الله مماس للصفحة العليا من العرش وأنه تجوز عليه الحركة والانتقال وتبدل الجهات إلى " اليهود لعنهم الله "[٤] .

أما عن الكيفية التي تسربت بها العقائد اليهودية إلى القائلين بالتجسيم فلا شك أن هناك أكثر من طريق ، منها مسلمة أهل الكتاب ، ومنها الدس اليهودي ، ومنها الاطلاع المباشر على ما ترجم من كتب أهل الكتب .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره أهل العلم في ترجمة مقاتل بن سليمان حيث أشاروا إلى أنه كان يقرأ في كتب أهل الكتاب " وكان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم ، وكان مشبها يشبه الرب بالمخلوقين. وكان يكذب مع ذلك في الحديث"[٥] وربما كان هذا مقصد الإمام

---

[١] – انظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ١ / ٣٥٤ ، و د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٣٣٧ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٠٨ ، ١٧٩ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ٣٠ .

[٢] – الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٠ .

[٣] – الإسفراييني : التبصير في الدين ص ٤١ ، وانظر د. النشار : نشأة الفكر ٢ / ١٨٩ .

[٤] – الآمدي : أبكار الأفكار ٢ / ٣٤ ، تحقيق د. أحمد المهدي ، وانظر د. حسن الشافعي : الآمدي وآراؤه الكلامية ص ٣٢٣ .

[٥] - ابن حبان : المجروحين ١٤/٣ ، والسمعاني : الأنساب ٢ / ٣٣٧ ، وانظر د. صهيب السقار : التجسيم في الفكر الإسلامي ص ٧٢ .

أحمد عندما سئل عن مقاتل فقال " كانت لـه كتب ينظر فيها ، إلا أنـي أرى أنـه كـان لـه علم بالقرآن"[١].

وفـي ختـام حـديثنا عـن التشـبيه عنـد اليهـود ، ومـدى تـأثيره علـى الاتجاهـات الحشـوية لـدى المسلمين ، نود أن ننبه إلى ثلاث ملاحظات مهمة :-

الملاحظـة الأولـى : أن النصـوص السـابقة وإن كانـت تؤكـد امـتلاء التـوراة الموجـودة بـين أيـدينا بالتشبيه والتجسيم ، إلا أن ذلك لا ينفي أن التوراة الحقيقيـة هـي فـي الأصـل كتـاب سماوي جـاء بالتوحيد وتنزيـه الخـالق سبحانه عن سمات النقص والحدوث[٢] ، ولـيس صـحيحا بحـال مـا زعمـه الـبعض مـن أن اليهوديـة ليست ديانـة توحيديـة فـي أصـلها ، بـل لـيس هنـاك نبـي اسمه إبـراهيم ولـيس هنـاك قـوم بعينهم عبروا مصـر فسموا العبرانيين ،وإنمـا هـم قبائـل شتى مـن جزيـرة العـرب وسوريا الكبرى أصابها الجوع فعبرت النهر إلى مصر ولذلك سموا بالعبرانيين[٣] .

ولا شك أن مثل هذا الزعم يتعارض تماما مع القرآن الذي أخبر بأنـه مـا أرسل رسولا إلا لكـي يدعو إلى التوحيد فقال سبحانه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(سورة الأنبياء :٢٥)وأخبر الله أنـه أخذ ميثاق بنـى إسرائيل أن يعبدوا الله وحده فقال سبحانه (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)(سورة البقرة :٨٣)كذلك بين سبحانه أن التوراة الحقيقية مشتملة على الهدى والنور والموعظة فقال سبحانه(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) (سورة المائدة : ٤٤) وقال سبحانه (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)(سورة الأعراف : ١٤٥)

ومـن حسـن الحـظ أن التـوراة الموجـودة بـين أيـدينا لا تخلـو مـن شـذرات متنـاثرة تشـهد لأصـلها التوحيدي[٤] ومن ذلك ما جاء في أول وصية من الوصـايا العشر " أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا

---

[١] - الخطيب : تاريخ بغداد ١٦١/١٣ ، والمزي : تهذيب الكمال ٢٨ / ٤٤٨ .

[٢]- انظر رمزي نعناعة : الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٤٧ ، ود. علي المغربي : الفرق الكلامية ص ٧٣ .

[٣] - انظر د. محمد علي البار : الله والأنبياء في التوراة ص ١٣ ، ود.سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٠٨ .

[٤] - انظر د. جابر إدريس : مقالة التشبيه ١ / ٢٠١ .

ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، و ما في الأرض من تحت ، و ما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور "[١] وورد في سفر الخروج ما يفيد تنزيه الله عن الشبيه والنظير ، حيث تقول التوراة " لتعرف أنه لا مثيل للرب إلهنا "[٢]

الملاحظة الثانية أنه يوجد عدد غير قليل من أهل العلم وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية يؤكدون في عدد من كتبهم أن منشأ مقالة تعطيل الصفات ونفيها إنما يرجع إلى اليهود[٣] ، وفي نفس الوقت ينسبون إليهم القول بالتشبيه ، ويرون أنهم يصفون الخالق سبحانه بصفات المخلوق ونقائصه ومعايبه من الفقر والبخل والعجز[٤] ، فكيف يستقيم اجتماع هذين الأمرين معا ، أم أن ذلك يعد من قبيل التناقض ؟

وأعتقد أنه ليس ثمة تناقض في حقيقة الأمر ، إذ إن التأثير اليهودي قد ظهر في جانبي التعطيل والتشبيه معا ، وإن كان ظهوره في جانب التشبيه أكثر وضوحا ، واليهود ينقسمون إلى اتجاهين رئيسين في هذا الباب :- **الأول** : اتجاه التشبيه وهو قول عامة اليهود ، إذ إن " التشبيه فيهم طباع " كما يقول الشهرستاني[٥] ، وقد قامت عقيدتهم في الإلهيات على تشبيه الله تعالى بالإنسان ، ومن فرقهم الجالوتية والأصفهانية والسامرية .

والثاني : اتجاه التعطيل وهم من يقولون بنفي التشبيه والتجسيم ، ويفرقون بين ما يفهم من صفات الإنسان ، وما يفهم من هذه الصفات لو أضيف لله تعالى ، ومن فرق اليهود القائلين بذلك اليوذعانية والموشكانية والمقاربة والعنانية ، وهم يرون أن للتوراة ظاهرا ، وباطنا وتنزيلا وتأويلا ، وقد خالفوا بتأويلاتهم المجازية عامة اليهود في التشبيه والتجسيم ، وحمل بعضهم ما ورد في التوراة من نصوص التشبيه على أن المراد بذلك ملك اختاره الله تعالى وقدمه على جميع

---

[١] – سفر الخروج (٢٠ : ٢ – ٥)

[٢] – سفر الخروج (٨ : ١٠)

[٣] – انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٥ / ٢٠ ، والحموية ص ٨ ، وبيان تلبيس الجهمية ١ / ١٥٠ ، وابن عبد الهادي : العقود الدرية ص ١٠٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٠ / ١٩ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦ / ١٢١ ، وأحمد أمين : ضحى الإسلام ١ / ٣٥٢ .

[٤] – انظر ابن تيمية : الجواب الصحيح ٢ / ١٣ .

[٥] – الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٠ .

الخلائق ، ومن هذا الفريق أيضا فيلون السكندري ، وموسى بن ميمون صاحب كتاب دلالة الحائرين[1] .

الملاحظة الثالثة : أننا اكتفينا بالكلام عن التشبيه عن اليهود ولم نسترسل في الكلام عن التشبيه عند النصارى ، نظرا لأن التأثير اليهودي في المشبهة من المسلمين كان أكثر وضوحا وأكثر خطرا .

ثم إن هناك سببا آخر لا يقل أهمية عن سابقه ، وهو أن العقيدة المسيحية قائمة في أساسها على فكرة تشبيه المخلوق بالخالق ، حيث جعلت من المسيح عليه السلام إلها وأسبغت عليه سائر صفات الإله ، مما يجعل من الكلام عن نصوص تشبيه الإله في الإنجيل مهما تعددت أمرا يسيرا بجانب هذا الأساس المنهجي الأبرز وهو القول بحلول الإله في الإنسان .

ومن الواضح أن فكرة الحلول والاتحاد – ومثلها القول بوحدة الوجود – فضلا عن أنها " تؤدي إلى القول بقدم العالم فإنها تؤدي أيضا إلى التجسيم ، فالقول بأن الله حال في العالم أو أن العالم حال في الله كلاهما يؤدي إلى نفس المعنى "[2]

وقد نسب الله في كتابه إلى النصارى قولهم بإلهية عيسى عليه السلام في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ "(سورة المائدة :١٧) وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)(سورة المائدة :١١٦)

وفي العهد الجديد نجد أن إنجيل يوحنا ينسب هذا الأمر صراحة للمسيح عليه السلام ، ومن المعروف أن لهذا الإنجيل شأنا وخطرا أكثر من غيره ، لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح ، ولفكرة التثليث التي تعتبر شعار النصرانية وأساس التباين بينها وبين ديانة التوحيد[3] ، ومما جاء في إنجيل يوحنا منسوبا للمسيح عليه السلام قوله " ألست تؤمن أنى

---

[1] – انظر الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ٢١٥ ، و د. محمد البهي : الجانب الإلهي ص ٨٤ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٨٠ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٣٠١ – ٣٠٤ .

[2] – د. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٨٦ .

[3] – انظر د.محمد عبد الله الشرقاوي : بحوث في مقارنة الأديان ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

أنا في الآب ، والآب في ، الكلام الذي أكلمكم به ، لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال ، صدقوني أنى في الآب و الآب في "[1].

<u>وأما الرافد الثاني من روافد العامل الخارجي ، فيتمثل في الزندقة والزنادقة</u> ، وثمة كلام طويل حول ظاهرة الزندقة ؛ من حيث مفهومها نشأتها وتطورها، والعوامل التي أدت إلى ظهورها ، ومن هم الزنادقة الذين ظهروا في المجتمع الإسلامي، وتصدى لهم الخلفاء والأمراء[2] والذي يعنينا هنا هو أن أثر الزندقة في ظهور الحشو قد تجلى في أمرين أساسيين :-

<u>الأمر الأول</u> : شيوع بعض الآراء المغرقة في البطلان والخرافة ، ومصادمة الدين والعقل والفطر السوية ، والمتضمنة لتأليه البشر ، أو ادعاء حلول الله سبحانه في بعض الناس ومن نماذج ذلك[3] فرقة الراوندية ، وهم قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية جبريل ، وقد أتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، ثم مضت طائفة منهم إلى حلب ، واستغووا ذوي العقول الضعيفة وزعموا أنهم بمنزلة الملائكة ، وخيطوا الحرير على مثال الأجنحة ، وغرزوا فيه الريش وصعدوا تلا عظيما بحلب وطاروا منه ، فتكسروا وهلكوا[4] .

وهناك أيضا فرقة المقنعية الذين ينسبون إلى المقنع الخراساني ، وهو رجل ضال مضل كان في مبدأ أمره قصارا من أهل مرو ، وكان يعرف شيئا من السحر والنيرجات ، فادعى الربوبية عن طريق التناسخ ، وزعم أن الله سبحانه وتعالى تحول إلى صورة آدم ، ثم تحول من آدم إلى صورة نوح عليه السلام ثم إلى صورة سائر الأنبياء عليهم السلام والحكماء حتى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم زعم أنه انتقل إليه منه ، وقد قبل قوم دعواه وعبدوه وقاتلوا دونه ، رغم ما كان عليه من قبح الصورة ، حيث كان مشوه الخلق أعور وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجها من ذهب فتقنع به فلذلك قيل له المقنع ، وإنما غلب على عقولهم بالتمويهات التي

---

[1] – إنجيل يوحنا (١٤ : ١٠-١١)

[2] - انظر في الكلام عن ظاهرة الزندقة: ابن النديم : الفهرست ص٤٧٣، وأحمد أمين : ضحى الإسلام ١/١٣٨-١٥٨ ، وزهدي جار الله المعتزلة ص٣٨-٤٦، وعاطف شكري أبو عوض : الزندقة والزنادقة .

[3] – انظر عاطف شكري أبو عوض : الزندقة والزنادقة ص ١٢٥.

[4] – انظر الطبري : تاريخ الطبري ٤ / ٣٩٥ ، والمقدسي : البدء والتاريخ ٥ / ١٣٢، وابن الجوزي : المنتظم ٨ / ٣١ ، واليافعي : مرآة الجنان ١ / ٢٩٢ .

أظهرها لهم من السحر وغيره ، ولما اشتهر أمر المقنع ثار عليه الناس وحاصروه في قلعته التي كان اعتصم بها ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهن سما فمتن منه ثم تناول شربة من ذلك السم فمات وذلك في سنة ثلاث وستين ومائة[1] .

أما **الأثر الثاني** للزندقة في ظهور الحشو فيتمثل في الركام الهائل من الأحاديث المكذوبة والموضوعة ، التي افتراها تلك الشرذمة من الزنادقة ، وتعمدوا بثها بين المسلمين ، بغية إفساد عقائدهم وتضليل عوامهم وضعاف العقول منهم ، وقد نقلت أقوال كثيرة عن عدد من هؤلاء الزنادقة يعترفون فيها باقتراف ذلك الجرم الشنيع وأنهم وضعوا آلاف الأحاديث المكذوبة[2] ، ومن ذلك قول ابن أبي العوجاء عند قتله " والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت فيها الحرام وحرمت فيها الحلال ، والله لقد فطرتكم يوم صومكم ، وصومتكم يوم فطركم "[3] وقال المهدي " أقر عندي رجل من الزنادقة أنه وضع أربعمائة حديث ، فهي تجول في أيدي الناس "[4] وقال حماد بن زيد " وضعت الزنادقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ألف حديث "[5] وجيء إلى الرشيد بزنديق فأمر بقتله ، فقال يا أمير المؤمنين أين أنت عن أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم ، أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام ، ما قال النبي منها حرفا ، فقال له الرشيد أين أنت يا زنديق عن عبد الله بن المبارك ، وأبي اسحاق القراري ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا"[6] .

وربما ثار لدى البعض تساؤل عن الدافع وراء اعتراف الزنادقة بوضعهم هذا العدد الكبير من الأحاديث ؟ وقد أرجع نفر من الدارسين ذلك إلى أنهم أرادوا تحدي المسلمين بإصرارهم على زندقتهم ، وذهب آخرون – وهو الأرجح فيما يبدو لي – أن اعتراف الزنادقة بوضع هذا العدد الهائل من الحديث ليس سوى جزء من مخططهم للطعن في الدين وتنفير الناس منه .

---

[1] – انظر تاريخ الطبري ٤ / ٥٦٠ ، وعبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٣ ، وابن حزم : الفصل ٤ / ١٤٣، وابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، وابن العماد : شذرات الذهب ١/ ٢٤٨ .

[2] – انظر د عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ص ٢٠٨ ، ود.عمر فلاتة : الوضع في الحديث ص ٢٢٢ .

[3] – انظر ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ١٥ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥ / ٢٠٧ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٠ / ١١٣ .

[4] – انظر ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ١٥ ، والسيوطي : تحذير الخواص ص ١٦٤ .

[5] – انظر ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ١٦ ، وابن عراق : تنزيه الشريعة ١ / ١١ .

[6] – السيوطي : تحذير الخواص ص ١٦٤ .

وليس معنى هذا أنهم لم يكذبوا مطلقا ، بل إنهم بالفعل كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير لكن ما ينبغي " أن يسلم لهم الادعاء بوضع هذا الأعداد الهائلة ، لا سيما وأن بعضهم حصرها في تحليل الحرام أو تحريم الحلال ، ولو تتبعنا الكتب التي عنيت بجمع الأحاديث الموضوعة لم تبلغ هذا العدد فضلا عن أن تبلغ أحاديث الأحكام هذا الرقم فالزنادقة كما أفسدوا حال حياتهم ، أرادوا أن يفسدوا أيضا بعد أخذهم وتقتيلهم ، فألقوا القول رغبة في تشكيك الناس في سنة رسولهم صلى الله عليه وسلم "[١]

ويمكن أن نضيف **رافدا ثالثا للعامل الخارجي** إضافة للأمرين السابقين وهو الرافد الفلسفي القديم ، متمثلا في كل من الديانات الشرقية القديمة ، والفكر الرواقي ، والغنوصي ، وثمة إشارات عديدة إلى هذا التأثير لدى بعض من كتبوا في الفرق قديما مثل الإسفراييني في كتابه التبصير في الدين[٢] ، ثم أخذ الأمر اهتماما وتفصيلا أوسع لدى عدد غير قليل من الدارسين المعاصرين[٣] .

وقد أشار الدكتور النشار في كتابه نشأة الفكر الفلسفي إلى أثر الفلسفة الرواقية الخطير في العالم الإسلامية ، متبنيا القول بأن أثر هذا الاتجاه الفلسفي لا يقل أبدا عن أثر أرسطو ، ومن أبرز آثار الرواقية التي تعنينا هنا تأثيرها على بعض القائلين بالتجسيم من أمثال مقاتل بن سليمان ، وهشام بن الحكم ، لا سيما أن المذهب الرواقي يقول بفكرة جسمية الله وجسمية الوجود[٤] .

أما أثر الغنوصية فيمكننا أن نرصده في مجالين أساسيين : أولهما وضع الأحاديث الواهية والمكذوبة[٥] ولا سيما ما كانت معانيها متضمنة لشيء من الحلول أو الاتحاد أو الغلو فيما يعرف بالحقيقة المحمدية .

---

١ – د. عمر فلاتة : الوضع في الحديث ص ٢٢٢ .

٢ – انظر الاسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٣ .

٣ – انظر د.فيصل عون: علم الكلام ومدارسه ص ١٥٦ ، ود. عبد الفتاح المغربي : الفرق الكلامية الإسلامية ص ١٥٣ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٢٨٤ .

٤ – انظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٣٩ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٢٨٤ .

٥ – انظر د. عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية ص ٦ .

ومن أمثلة ذلك[1] حديث " كنت نبيا وآدم بين الطين والماء " [2]وحديث " كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبه عرفوا "[3] وحديث " لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي ما خلقت خلقا أعجب إلي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك الثواب وعليك العقاب "[4]

وأما المجال الثاني – وربما كان الأكثر خطرا – فيتمثل في آراء أصحاب الاتجاه الصوفي الفلسفي حيث دخلت فكرة الثنائية الغنوصية بين الله والمادة في عقائدهم ، فأصبح محمد صلى الله عليه وسلم العقل الأول ، ومن هذا العقل خرج أشياء كثيرة في تدرج تنازلي حتى نصل إلى المادة أصل الشرور في العالم ، لكن الإنسان يستطيع أن يصل ثانية إلى العقل الأول عن طريق المنهج العرفاني[5] ، وقد جزم د. النشار بأن " التصوف الفلسفي في الإسلام قد تأثر بالغنوص ، وسقط عدد من مفكري الإسلام ضحية له – منهم الحلاج ، والسهروردي المقتول وعين القضاة الهمذاني ، والششتري ، ومحيي الدين بن عربي ، وغيرهم "[6]

ومن مظاهر الغنوص الخطيرة أيضا القول بحلول الله تعالى في خلقه ، وممن قال بذلك الحلمانية المنسوبين إلى أبي حلمان الدمشقي ، وكانوا يرون حلول الإله في الأشخاص الحسنة فإذا رأى هو وأصحابه صورة حسنة سجدوا لها معلنين أن الله حل فيها[7] .

---

[1] – انظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ١٨٥ .

[2] – وقد حكم ابن تيمية على الحديث بهذا اللفظ بأنه كذب باطل فانظر ابن تيمية : أحاديث القصاص ص ٨٧ والزركشي : اللآلئ المنثورة ص ١٧٢ ، والعجلوني : كشف الخفاء ٢ / ١٣٢ ، والكرمي : الفوائد الموضوعة ص ١٠٤ ، والألباني : الضعيفة (٣٠٢)

[3] – وهذا الحديث لا أصل له كما حكم بذلك الكثير من أهل العلم فانظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٨ / ١٢٢ ، والسخاوي : المقاصد الحسنة ص ٥٢١ ، والعجلوني : كشف الخفاء ٢ / ١٧٣ ، والألباني : الضعيفة (٦٥٢٣) ومع أن الحديث لا أصل له فقد استدل به عدد من المصنفين في علوم شتى دون تنبيه على وضعه انظر تفسير الرازي ٢٨ / ٢٠٠ ، وتفسير أبي السعود ٢ / ١٣٠ ، والتعريفات للجرجاني ص ٢١٨ ، كما ألف بعض الصوفية رسالة مستقلة في شرحه انظر كشف الظنون ٢ / ١٠٤٠ .

[4] – وهذا الحديث موضوع كما حكم بذلك كثير من أهل العلم فانظر ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ١٧٤ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٨ / ٣٣٦ ، والجواب الصحيح ٥ / ٤٠ ، وابن القيم : المنار المنيف ص ٦٠ ، والعجلوني : كشف الخفاء ٢ / ٢٣٦ ، والألباني : مشكاة المصابيح (٥٠٦٤)

[5] – انظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢١١ ، ٢١٢ .

[6] – المصدر السابق ١ / ٢١٢ .

[7] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٥ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ١٣٢ .

ومن نماذج الغنوص الشيعي ابن أبي العذافر الشلمغاني ، وهو صوفي من غلاة الشيعة ادعى حلول روح الله فيه ، وقال برفع التكاليف عن أتباعه ، وفي نهاية الأمر قتله الخليفة الراضي[1] .

المبحث الرابع : أبرز الاتجاهات الحشوية .

ولعل من المهم أن نشير في مفتتح هذا المبحث إلى أن أبرز مشكلة تواجه من يحاول تتبع الاتجاهات الحشوية ، ومعرفة مؤسسيها والآراء التي انتحلتها هي أن الكتب الكلامية حافلة بظاهرة اتهام الخصوم بالحشو ، ورميهم بالتجسيم والتشبيه والتنكب عن المذهب الصحيح .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن عمرو بن عبيد هو أول من سن تلك السنة ، حين اتهم ابن عمر رضي الله بالحشو ، ثم استفحل الأمر بعده ، وصارت كل طائفة ترمي خصومها بالحشو ، وتصفهم بالحشوية .

ولم يقتصر الأمر على اتهام الخصوم بالحشو كوسيلة للذم والانتقاص فحسب ، بل نسب للحشوية آراء يصعب أن يقول بها أي طائفة من المسلمين لديها أدنى معرفة بالعلم أو حقائق الكتاب والسنة ، وإنما يمكن أن تصدر من عوام لا عقل لهم ولا تمييز ، ومن أمثلة ذلك ما حكاه السكسكي في كتابه البرهان عن جماعة من الحشوية في طبرستان ، وفي بعض أصبهان " يقولون بأن الله – تعالى عن قولهم – على صورة شاب أمرد له شعر قطط ، في رجله نعل من ذهب ، ينزل يوم عرفة على جمل أحمر ، وينزل في كل ليلة جمعة ، وذكر العزيزي أنهم إلى يومه بطبرستان ، وفي بعض أصبهان يخرجون في كل ليلة جمعة بالحمير مشدود عليها عود مليح مزوق ، يقولون إذا نزل – أي الله تعالى عن قولهم علوا كبيرا – اتكأ عليه "[2]

ولا يخفى شناعة تلك المعتقدات وتهافتها ، واستحالة أن يقول بها عاقل فضلا عن عالم وليس بمستبعد أن يكون هؤلاء النفر مجموعة من الجهال الطغام يمارسون طقوسا أو عادات متوارثة ،

---

[1] – انظر الاسفراييني : التبصير في الدين ص ١٣٤ ، وابن الجوزي : المنتظم ٦ / ٢٧١ ، وابن الأثير : الكامل ٣ / ٤٥٥ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٢٤ / ٢٤ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢١٢ ، ٢١٣ .

[2] – السكسكي : البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٣٨ .

ربما ورثوها عن آبائهم الأولين ، أو زينها لهم بعض أعداء الإسلام ممن قصدوا إفساد عقائدهم وإيقاعهم في الكفر الصراح .

ومن الأمثلة الأخرى ما حكاه عدد من الأصوليين[1] عن الحشوية أنهم يقولون بأن الله سبحانه يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئا ، وإنما هي مجرد ألفاظ مرصوصة بجانب بعضها البعض ، ولا تعني شيئا .

ولا شك في قبح هذا القول من جهة ، وصعوبة أن يتبناه من شم رائحة العلم من جهة أخرى ، وقد نفى ابن تيمية رحمه الله أن يكون هناك مسلم قد ذهب إلى هذا الرأي وأن ما يقصده الحشوية هو اشتمال كلام الله على ما لا نفهم نحن معناه ، وليس على ما لا معنى له أصلا فقال " حكى الرازي في محصوله عمن سماهم بالحشوية أنهم قالوا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئا ، لكن هذا القول لا أعرف به قائلا ، بل لم يقل هذا أحد من طوائف المسلمين ، ولهذا كنا مرة في مجلس فجرت هذه المسألة فقلت هذا لم يقله أحد من طوائف المسلمين ، وإن كان أحد ذكره فليس فيما ذكره حجة على إبطاله ، فقال بعض الذابين عنه هذا قالته الكرامية فقلت هذا لم يقله لا كرامي ولا غير كرامي ولا أحد من أهل المذاهب الأربعة ولا غيرهم "[2] ثم أشار ابن تيمية إلى أن النزاع في إمكان أن يتكلم الله بما لا يفهم معناه وليس بما لا معنى له؟ وبين نفي المعنى عند المتكلم ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم[3] .

وأعتقد أنه يتعين علينا أمام مثل هذه الظاهرة أن نضع ضابطا منهجيا نحدد على أساسه من هم الحشوية ، ومتى نطلق هذا اللقب على شخص أو طائفة ما ، بدلا من أن نترك المسألة للأهواء والخصومات الشخصية ، التي تفتقد العدل والإنصاف ، ويغلبها روح التعصب والمنافسة .

ومن خلال المفهوم الذي حددناه في أول هذا البحث للحشوية ، ومن خلال ما نسب إليهم من آراء نستطيع أن نذكر فيما يلي عددا من السمات والآراء التي تميز الحشوية عن غيرهم

---

[1] – انظر الرازي : المحصول ١ / ٥٣٩ ، والسبكي : الإبهاج ١ / ٣٦٠ ، وابن أمير الحاج : التقرير والتحبير ٢ / ٢٨٩ ، والمرداوي : التحبير شرح التحرير في أصول الفقه ٣ / ١٤٠٣ ، و التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ١ /٦٧٩ .

[2] – ابن تيمية : الصفدية ١ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

[3] – ابن تيمية : الإكليل في المتشابه والتأويل ١ / ٨ .

ويستحق من وجدت فيه واحدة من تلك السمات أو جميعها أن يوصف بالحشو ، سواء أكان حشوا جزئيا أو حشوا كليا ، وتتلخص تلك السمات فيما يلي[١] :-

١- القول بالتشبيه والتجسيم الصريحين ، والزعم بأن صفات الله مماثلة لصفات المخلوقين وفهم صفاته سبحانه على وجه مشابه لصفات المخلوقين ، وهو فهم ناشيء عن قصور في العلم وضعف في التمييز والإدراك ، وجهل بما دلت عليه قواطع النصوص من تنزيه الله عن النقائص ، وأنه سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الشورى : ١١)

٢- رواية الأحاديث الموضوعة والمكذوبة ، دون تمييز بين ما صح وما لم يصح منها والتصديق بكل ما يروى أو يذكر في الكتب ، وحكايته دون فحص أو تدقيق ، أو تأمل لمعاني المرويات وما يمكن أن تشتمل عليه من تعارض أو مصادمة لصحيح المنقول ، أو صريح المعقول .

٣- تنحية العقل تماما ، وإهماله بالكلية ، والزعم بأنه لا دور له مطلقا في مجال الاستدلال الشرعي والعقدي ، أو فهم النصوص وتبين دلالة معانيها .
٤- إيجاب التقليد والالتزام به في أصول العقائد ، وذم النظر والتشكيك في مشروعيته وجوازه إضافة لنفي أي جدوى أو فائدة للنظر أو إعمال العقل في قضايا الاعتقاد .

٥- تبني بعض الآراء المستبشعة والمستنكرة ، والتي تتسم بالسطحية والسذاجة أحيانا ، وتنبع عن فهم مغلوط للنصوص ، وحملها على ما لا تدل عليه ألفاظها وسياقاتها ، وعدم التعامل معها وفقا لمنهجية الاستدلال التي سار عليها علماء الأمة وأئمتها عبر القرون ، ودونت في كتب الأصول والمصطلح وغيرها من فنون العلم .

ومن خلال تطبيقنا للضوابط السابقة نستطيع أن نقول – دون تعصب أو تحيز – إن ظاهرة الحشو قد وجدت بصورة أو بأخرى لدى عدد من المدارس الكلامية أو الشخصيات المنتسبين

---

[١]- وقد نسب للحشوية الكثير من الآراء منها ما يصح ، ومنها ما هو تعصب الخصوم ، وقد استخلصنا ما نظن أنه ثابت النسبة إليهم ، وانظر بعض تلك الآراء عند الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص ٧، ٨ ، وابن رشد : مناهج الأدلة ص ١٣٤ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٥ ، ود. التفتازاني : علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١١٠ ، ود. حسن الشافعي : الآمدي وآراءه الكلامية ص ١١٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٣٢٧ ، ود. المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢ / ٥٩٥ .

لفرق مختلفة ، دون أن يعني ذلك أن هذه الطائفة بأسرها حشوية ، أو أن كل من انتمى إليها لابد أن يكون بالضرورة حشويا ، وأبرز الاتجاهات التي نعنيها ما يلي :-

أولا : حشوية الشيعة

وقد ظهر الحشو بمختلف صوره وأشكاله لدى الشيعة ، بل ربما كانوا من أسبق الطوائف والفرق في بروز بعض أنواع الحشو لديهم ، وفي ظني أن طبيعة المذهب الشيعي نفسها كان لها أثر كبير في هذا الأمر ، حيث اتسم بعدد من السمات والخصائص التي تؤدي بصورة أو بأخرى إلى ظهور الحشو .

ويأتي في مقدمة تلك السمات شيوع الغلو بأنواعه المختلفة[١] ولا سيما الغلو في الأشخاص وللشيعة كما هو معروف باع طويل في هذا الأمر ، بل إن مذهبهم قائم في مجمله على الغلو في آل البيت وعلى رأسهم الأئمة الاثنا عشر .

ومن الأسباب المهمة الأخرى ابتلاء الكثير من أئمة أهل البيت بعدد ضخم من الكذابين الذين جالسوهم وادعوا صحبتهم ومحبتهم ، ثم استغلوا ذلك كله في الدس عليهم ، ووضع الأحاديث الباطلة و نسبتها إليهم لتروج بين الأتباع ، وقد اشتكى الأئمة أنفسهم من هذا الأمر وأعلنوا براءتهم منه [٢] ، وقد زاد من خطورته ، واتساع دائرة ضرره قلة عناية الشيعة بالتمييز بين المرويات ومعرفة صحيحها من مكذوبها ، مما أدى إلى اكتظاظ كتبهم بكم هائل من ركام الأحاديث الموضوعة والمنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين .

كذلك تعد السرية والكتمان ملمحا بارزا في المذهب الشيعي ، ونصوص المذهب شاهدة لذلك حيث نسبوا للأئمة قولهم " ما كل ما يعلم يقال ، ولا كل ما يقال حان وقته ، ولا كل ما حان وقته حضر أهله ، "[٣] وقال جعفر الصادق " إنكم على دين من كتمه أعزه الله ، ومن أذاعه أذله

[١] - انظر د. النشار : نشأة الفكر ٢ / ٦٥ .

[٢] - المجلسي : بحار الأنوار ٢ / ٢٥٠ .

[٣] - المجلسي : بحار الأنوار ٥٣ / ١١٦ .

الله "[1] وقال أيضا " إن عندنا والله سرا من الله ، وعلما من علم الله ، والله ما يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ، والله ما كلف الله ذلك أحد غيرنا "[2]

ولا شك أنه حينما تشيع السرية في مذهب ما ، وتتغلغل الأفكار الباطنية بين أتباعه ، فإن من شأن ذلك كله أن يهيئ التربة الخصبة لانتشار الأفكار المنحرفة ، وكثرة الدس والكذب ودخول المدعين الذين يريدون ترويج ما لديهم من أفكار باطلة تحت هذا الغطاء المناسب من السرية والكتمان .

والمطالع للمذهب الشيعي يمكنه أن يقف على مظاهر عديدة للحشو ، أبرزها ما يلي :-

١ - القول بالتشبيه والتجسيم

ويعتبر هذا الأمر من أبرز مظاهر الحشو عند الشيعة ، حيث ظهر كثير من الشخصيات المنتسبة للمذهب والقائلين بالتشبيه والتجسيم الصريحين ، بل تكاد كلمة مؤرخي الفرق تجمع على أن بدء ظهور التشبيه في الإسلام كان من قبل الروافض ، ثم انتقل منهم إلى الفرق الأخرى ، وقد أشار لذلك كل من الأشعري ، والإسفراييني ، وعبد القاهر البغدادي والشهرستاني ، والرازي ، وابن تيمية ، وغيرهم الكثير [3] .

ويؤيد هذا الحكم السابق أن أول وأشهر من قال إن الله جسم[4] - وهو هشام بن الحكم - يندرج ضمن رجال المذهب الشيعي البارزين ، وقد نسبت إليه آراء فجة في التشبيه والتجسيم حيث زعم أن الله سبحانه جسم ، وله نهاية وحد ، وأنه طويل عريض عميق ، وأن طوله مثل عرضه ،

---

[1] - الكليني : الكافي ٢ / ٢٢٢ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٧٢ / ٧٣ ، والحر العاملي : وسائل الشيعة ١٦ / ٢٣٥ ، والبروجردي : جامع أحاديث الشيعة ١٤ / ٥٣٢ .

[2] - الكليني : الكافي ١ / ٤٠٢ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٢٥ / ٣٨٥ .

[3] - انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ١ / ٣٥ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٩ ، وعبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢١٤ ، و الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٧٢ ، والرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦٣ ، وابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٢ / ١٠٣ ، والكوثري : مقدمة تبيين كذب المفتري ص ١١ ، ود.النشار : نشأة الفكر ٢ / ١٦٨ ، ١٧٣ .

[4] - انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١٨٦ ، ومنهاج السنة النبوية ٢ / ٢٢٠ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٦٥ .

وعرضه مثل عمقه لا يوفى بعضه على بعض[1] ، وحكى أبو الهذيل العلاف أن هشام بن الحكم قال له إن ربه جسم ذاهب جاء ، فيتحرك تارة ويسكن أخري ، ويقعد مرة ويقوم أخري ، وأنه طويل عريض عميق ، لأن ما لم يكن كذلك دخل في حدث التلاشي ، قال فقلت له : فأيما أعظم إلهك أو هذا الجبل ، وأومأت إلى أبى قبيس ؟ قال فقال : هذا الجبل يوفى عليه أي هو أعظم منه[2] ، وحكى عنه الكعبي قوله إن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه [3] .

وعلى نفس المنوال نسب لشيعي آخر وهو هشام بن سالم الجواليقي أقوالا لا تقل بشاعة عما سبق ، حيث زعم أن الله تعالى على صورة الإنسان ، وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان له يد ورجل وأنف وأذن ، وعين وفم ، وأنه يسمع بغير ما يبصر به ، وأنه نور ساطع يتلألأ بياضا ، وأن نصفه الأعلى مجوف ونصفه الأسفل مصمت [4] .

ويبدو أن علماء الشيعة قد أحسوا بمأزق كبير من جراء آراء هشام بن الحكم – وكذا هشام الجواليقي – المتقدمة لا سيما أن الرجلين معدودان ضمن علماء المذهب البارزين ، ومن ثم حاولوا تبرئة المذهب من تلك الوصمة ، سالكين في ذلك مسالك شتى[5] ، فتارة يطعنون في صحة صدور تلك الأقوال عنهما ، ويقولون إنها مكذوبة ومفتراة ، وفي هذا المعنى يقول الخوئي

---

[1] – انظر في الكلام عن آراء هشام بن الحكم :– الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٣٢ ، وعبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٤٨ ، والشهرساني : الملل والنحل١ / ١٧٢ ، والسكسكي : البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٥٧ ، وابن تيمية : بيان تلبيس الجهمية ١ / ٤٠٩ ، ود. النشار : نشأة الفكر ٢ / ١٧٣ ، ود. التفتازاني : علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١٠٦ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٦٥ .

[2] – الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٣٢ ، وعبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٤٨ ، والجويني : الشامل في أصول الدين ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

[3] – انظر الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٧٢ ، وابن حزم : الفصل ٤ / ١٣٩ .

[4] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٣٤ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ٣٩ ، ٤٠ ، وعبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٥١ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٧٢ ، وابن تيمية : بيان تلبيس الجهمية ١ / ٤٠٩ .

[5] – وثمة محاولة حثيثة من هذا القبيل لتبرئة هشام عند بعض كتابهم المعاصرين ، فانظر على سبيل المثال كتاب عبد الله نعمة : هشام بن الحكم رائد الحركة الكلامية في الإسلام وأستاذ القرن الثاني في الكلام والمناظرة ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م ، و بحث قولة « جسم لا كالأجسام » بين موقف هشام بن الحكم و مواقف سائر أهل الكلام لمحمد رضا الحسيني ، مجلة تراثنا العدد الثاني ، السنة الخامسة ، ربيع الثاني ١٤١٠ هـ .

" وإني لأظن الروايات الدالة على أن هشاما كان يقول بالجسمية كلها موضوعة ، وقد نشأت هذه النسبة من الحسد "[1] .

وتارة يقولون إنها من قبيل الإلزام ، ولم يقولا بها صراحة كما قال المجلسي " لا ريب في جلالة قدر الهشامين وبراءتهما عن هذين القولين ، وقد بالغ السيد المرتضى قدس الله روحه في براءة ساحتهما عما نسب إليهما في كتاب الشافي ، مستدلا عليها بدلائل شافية ، ولعل المخالفين نسبوا إليهما هذين القولين معاندة كما – نسبوا المذاهب الشنيعة إلى زرارة وغيره من أكابر المحدثين ، أو لعدم فهم كلامهما "[2]

والحق أن كل تلك المحاولات ليست بذات جدوى لسبب في غاية الأهمية وهو ورود روايات في أصح مصادر الشيعة تعترف صراحة بآراء هشام المغرقة في التشبيه ، وأن الأئمة قد أعلنوا تبرؤهم القاطع منها[3] ، ومن هذا القبيل ما رواه الكليني أن أحد الشيعة كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عما قال هشام بن الحكم في الجسم ، وهشام بن سالم في الصورة فكتب إليه " دع عنك حيرة الحيران وأستعذ بالله من الشيطان ، ليس القول ما قال الهشامان "[4] كذلك كان الأئمة يتبرءون منهما ومن قولهما، وحينما جاء بعض الشيعة إلى أبي الحسن وقال له: "إني أقول بقول هشام" فقال له "ما لكم ولقول هشام؟ إنه ليس منا من زعم أن الله جسم، ونحن منه براء في الدنيا والآخرة "[5] .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن القول بالتشبيه ليس مقصورا على الهشامين وحدهما إذ من الواضح أن المذهب الشيعي بخصائصه وسماته كان بمثابة تربة خصبة لكثير من ذوي الآراء المنحرفة والمغرقة في الغلو وتشبيه الله بخلقه ، وقد حفلت كتب الفرق بعدد كبير من هذه الشخصيات الذي نسبت إليهم اتجاهات بأكملها ، وممن نبه على هذا المعنى ابن تيمية حيث قال " التشبيه والتجسيم المخالف للعقل والنقل لا يعرف في أحد من طوائف الأمة أكثر منه في

---

[1] – الخوئي : معجم رجال الحديث ٢٠ / ٣٢١ . .

[2] – المجلسي : بحار الأنوار ٣ / ٢٨٨ .

[3] – انظر د. القفاري : أصول مذهب الشيعة ١ / ٥٣٢ .

[4] – الكليني : الكافي ١ / ١٠٥ ، والصدوق : التوحيد ص ٩٧ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٣ / ٢٨٨ .

[5] – الصدوق : التوحيد ص ١٠٤ ، والأمالي ص ٣٥١ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٣ / ٢٩١ .

طوائف الشيعة ، وهذه كتب المقالات كلها تخبر عن أئمة الشيعة المتقدمين من المقالات المخالفة للعقل والنقل في التشبيه والتجسيم بما لا يعرف نظيره عن أحد من سائر الطوائف "[1]

ومن هؤلاء الغلاة داود الجواربي وكان يقول في التشبيه قولا عظيما حيث نسب إليه أنه قال اعفوني عن الفرج واللحية واسألوني عما وراء ذلك ، وذهب إلى أن معبوده جسم ولحم ودم وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين ، وهو مع ذلك لا يشبه غيره ولا يشبهه غيره ، كما زعم أنه سبحانه أجوف من فمه إلى صدره ومصمت ما سوى ذلك ، وأن له وفرةً سوداء وله شعر قطط [2] .

وهناك أيضا عدد من فرق الغلاة الذين قالوا بمقالات مباينة تماما لدين الإسلام حتى إن بعض المصنفين في الفرق ذهب إلى أنهم لا يعدون في زمرة المسلمين ، ولا يندرجون في جملة الفرق الثنتين والسبعين لشناعة ما ذهبوا إليه من آراء[3] ، ومن بين هذه الفرق[4] البيانية أتباع بيان بن سمعان الذي كان يقول إن معبوده نور صورته صورة إنسان ، وله أعضاء كأعضاء الإنسان ، وأن جميع أعضائه تفنى إلا الوجه ، والمغيرية أتباع مغيرة بن سعيد العجلي الذي كان يقول إن للمعبود أعضاء ، وأعضاؤه على صورة حروف الهجاء ، و المنصورية وهم أتباع أبي منصور العجلي وكان يزعم أن الإمامة انتقلت إليه من الباقر ، ويدعي أنه رفع إلى السماء وأن الله مسح على رأسه وأنزله إلى الأرض ، والخطابية أتباع أبي الخطاب الأسدي ، وهم يقولون إن الأئمة كانوا آلهة ، وأن أولاد الحسن والحسين أبناء الله وأحباؤه .

وثمة فرق أخرى كثيرة على هذه الشاكلة لا يتسع المجال للاسترسال في الكلام عنها ، وما افتروه من مقالات مباينة تماما لكل دين وعقل ، وإنما سقنا الكلام عنها لنثبت ما قررناه آنفا من

---

[1] – ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٢ / ١٠٣ .

[2] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ١٥٣ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ١٢٠ ، والشهرستاني: الملل والنحل١ / ١٨٦ ، وابن تيمية : بيان تلبيس الجهمية ١ / ٤١٢ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٤٤ .

[3] – انظر الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١٢٣ .

[4] – انظر في الكلام عن هذا الفرق تفصيلا الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٩ ، ١٢٣ ، والشهرساني: الملل والنحل١ / ١٧٥– ١٨٠ ، والنوبختي : فرق الشيعة ص ٤٩ ، ٥٠ ، والرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٨ ، ٥٩ ، ود. النشار : نشأة الفكر ٢ / ٨٧ ، ٢٣١ ، ود. جابر إدريس: مقالة التشبيه ١ / ٢٣٥ .

أن البيئة الشيعية كان بيئة خصبة لظهور مثل هذه الأقوال المنحرفة والمغالية والتي لا يتردد المرء في وصفها بأنها أردأ أنواع الحشو وأفسده .

وثمة ملاحظة مهمة يجدر بنا ذكرها هنا ،وهي أن هناك الكثير من علماء الشيعة ينفون نسبة تلك الفرق والأشخاص للتشيع الحقيقي ، ويعدونهم من الغلاة[١] ، كما أن المذهب الشيعي قد أصابه تطور كبير في موقفه من باب الأسماء والصفات بفعل التأثير الاعتزالي ، فمال من القول بالتشبيه الفج إلى القول بتأويل الصفات وتعطيلها ، و صار مطابقا لرأي المعتزلة في هذه المسألة٢ .

لكن مع إقرارنا بذلك كله فيبقى أن هذا التطور الفكري والتأثر الشيعي بالمعتزلة لم يكن مانعا دون استمرار لون آخر من التشبيه شاع وانتشر في كتب الاثني عشرية وهو إيراد روايات ظاهرة البطلان ومليئة بالتشبيه الفج ووصف الله بصفات البشر .

ومن أمثلة ذلك نسبة المخاصرة إلى الله تعالى ، حيث رووا عن جعفر الصادق قوله " إن الله ليخاصر العبد المؤمن يوم القيمة ، والمؤمن يخاصر ربه يذكره ذنوبه ، قلت وما يخاصر ؟ قال فوضع يده على خاصرتي فقال هكذا كما يناجى الرجل منا أخاه في الامر يسره إليه "[٣]

كذلك نسبوا لله النزول على جمل في عرفة ، فعن جعفر الصادق أنه قال " إن الله ينزل في يوم عرفة في أول الزوال إلى الأرض على جمل أفرق يصال بفخذيه أهل عرفات يمينا وشمالا ، ولا يزال كذلك حتى إذا كان عند المغرب ونفر الناس وكل الله ملكين بجبال المازمين يناديان عند المضيق الذي رأيت يا رب سلم سلم ، والرب يصعد إلى السماء ويقول جل جلاله آمين آمين يا رب العالمين ، فلذلك لا تكاد ترى صريعا ولا كسيرا "[٤]

---

[١] – وقد أدرجهم النوبختي في كتابه فرق الشيعة ص ٥٠ ضمن الغلاة .

[٢] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ١ / ٣٥ ، وابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٢ / ٢٤٢ ، و الكوثري : مقدمة تحقيق تبيين كذب المفتري ص ١١ ، ود. النشار : نشأة الفكر ٢ / ٢٢٠ ، ود.السنهوتي : دراسات نقدية ص ٧١ ، و د. حسن الشافعي : المدخل لدراسة علم الكلام ص ١٠٦ – ١٠٨ ، ود. القفاري : أصول مذهب الشيعة ١ / ٥٣٥ ، ود. عبد اللطيف حفظي : تأثير المعتزلة في الخوارج و الشيعة ص ٤٨٣ – ٤٨٦

[٣] – الأصول الستة عشر ص ٥٤ .

[٤] – المصدر السابق ص ٥٤ .

ومن غلو الشيعة في فضل زيارة الحسين ما نسبوه لله جل شأنه أنه يزوره في كل ليلة جمعة ، فعن صفوان الجمال قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام لما أتى الحيرة : هل لك في قبر الحسين ؟ قلت : وتزوره جعلت فداك ؟ قال : وكيف لا أزوره والله يزوره في كل ليلة جمعة يهبط مع الملائكة إليه والأنبياء والأوصياء ومحمد أفضل الأنبياء ونحن أفضل الأوصياء . فقال صفوان : جعلت فداك فنزوره في كل جمعة حتى ندرك زيارة الرب ؟ قال : نعم يا صفوان : الزم تكتب لك زيارة قبر الحسين "[1] .

ومن روايات التجسيم الفجة عند الشيعة ما رووه عن جعفر الصادق أن المهدي إذا قام يأتي كربلاء فلا يبقى أحد سماوي ولا أرضي من المؤمنين إلا حفوا بالحسين – عليه السلام – حتى أن الله تعالى يزور الحسين ويصافحه ويقعد معه على سرير "[2]

وإذا كانت الروايات السابقة تتضمن تشبيها صريحا للخالق سبحانه بالمخلوق فثمة نوع آخر من الروايات يتضمن تشبيه المخلوق – وهم الأئمة – بالخالق جل وعلا ، حتى بلغ بهم الأمر إلى الزعم بأن الأئمة هم أسماء الله الحسنى[3] ، ففي الكافي عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف، آية: ١٨٠.] قال: "نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا"[4] كما زعموا أن أمير المؤمنين عليًا قال: "أنا عين الله وأنا يد الله وأنا حبيب الله وأنا باب الله"[5]. وقد ذكر المجلسي ستًا وثلاثين رواية تقول إن الأئمة هم وجه الله ويد الله[6] .

وأظن أنه لا ينبغي لنا أن نترك الكلام عن هذه المسألة دون أن نشير إلى براءة أئمة أهل البيت التامة والواضحة من تلك المعتقدات كلها ، حيث كانوا أبعد الناس عن هذا الغلو وأكثرهم ذما وبغضا للغلاة والمفترين ، وهناك نصوص كثيرة روتها كتب الشيعة عنهم يعلنون فيها براءتهم من كل من غلا فيهم أو أنزلهم فوق منزلتهم البشرية ومن ذلك ما روي عن علي بن الحسين

[1] – جعفر بن قولويه : كامل الزيارات ص ٢٢٣ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٩٨ / ٦٠ ، والبروجردي : جامع أحاديث الشيعة ١٢ / ٤٢٧ ،

[2] – الطبري الشيعي : دلائل الإمامة ص ١٨٩ ، وهاشم البحراني : مدينة المعاجز ٣ / ٤٦٥

[3] – انظر د. القفاري : أصول مذهب الشيعة ١ / ٥٥٦ .

[4] - الكليني : الكافي: ١٤٤/١، و المجلسي : بحار الأنوار ٩١ / ٦ .

[5] - المجلسي : بحار الأنوار ٢٤ / ١٩٤ .

[6] - المصدر السابق ١٩١/٢٤-٢٠٣.

رضي الله عنهما قال " لعن الله من كذب علينا ، إني ذكرت عبد الله بن سبأ ، فقامت كل شعرة في جسدي ، لقد ادعى أمرا عظيما ما له ، لعنه الله ، كان علي والله عبدا لله صالحا ، أخا رسول الله ، ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله ، وما نال رسول الله صلى الله عليه وآله الكرامة من الله إلا بطاعته الله "[1] وقد روي معنى قريب من هذا عن جعفر الصادق حيث قال " لعن الله عبد الله ابن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين ، وكان والله أمير المؤمنين عبدا لله طائعا ، ويل لمن كذب علينا ، وإن قوما يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا ، نبرأ إلى الله منهم ، نبرأ إلى الله منهم "[2]

٢- الرويات الموضوعة

وقد أشرنا من قبل إلى ضعف الشيعة الشديد وتقصيرهم البالغ في مجال علم المصطلح وقواعد التمييز بين المرويات ، وتعديل الرواة وتجريحهم ، مما أفسح المجال لانتشار الروايات المكذوبة ، وكثرة الرواة المعروفين بالوضع وهم بالعشرات[3] .

ولعل اشتهار الشيعة بهذا الأمر هو الذي دفع الكثير من أئمة المحدثين وأهل السنة لوصفهم بأنهم أكذب الطوائف أو أكذب خلق الله[4] ، وأما عدد ما وضعه الشيعة من أحاديث فهو عدد مهول جدا وبالغ الضخامة ، وأكثر من أن يعد ، حتى أوصله بعضهم إلى مئات الآلاف[5]

وليس الاتهام السابق مقصورا على خصوم المذهب وحدهم ، بل إن هناك العديد من النصوص التي يعترف فيها نفر من علماء المذهب بالأمر السابق ، ويقرون بتفشي ظاهرة الوضع عند الشيعة ، بل إن هناك من جعلهم أول من سبق لتلك الظاهرة الشنيعة ، ويبدو أن هذا الإحساس بالتفاوت الشديد بين تميز أهل السنة في مجال الرواية وضبطها وبين ضعف الشيعة الشديد في هذا الباب قد ظهر في فترة مبكرة حيث ذهب بعض الشيعة لجعفر الصادق فقال له " هؤلاء –

---

[1] – المجلسي : بحار الأنوار ٢٥ / ٢٨٦ ، والخوئي : معجم رجال الحديث ١١ / ٢٠٦ .

[2] – المجلسي : بحار الأنوار ٢٥ / ٢٨٦ ، والميرزا النوري : خاتمة المستدرك ٤ / ١٤٢ ، .

[3] – انظر د. خالد كبير علال : مدرسة الكذابين في رواية التاريخ ص ٦١ .

[4] – انظر ابن القيم : المنار المنيف ص ٥٢ ، والذهبي : ميزان الاعتدال ١ / ٢٧ ، ٢٨ ، وعمر فلاتة : الوضع في الحديث ١ / ٢٤٥

[5] – ابن القيم : المنار المنيف ص ١١٦ .

أي أهل السنة – يأتون الحديث مستويا كما يسمعونه ، وإنا ربما قدمنا وأخرنا ، وزدنا ونقصنا "[1] كذلك نلاحظ أن نصوص الأئمة قد تتابعت – كما تروى كتب الشيعة نفسها – في الشكاية من كثرة الكذابين عليهم[2]، فعن جعفر الصادق أنه قال: " إنا أهل بيت صديقون ، لا نخلو من كذاب يكذب علينا ، ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس "[3] وقد اعترف المغيرة بن سعيد كما تروي كتب الشيعة بذلك حيث قال: "دسست في أخباركم أخباراً كثيرة تقرب من مائة ألف حديث "[4].

وثمة نص مهم جدا لابن أبي الحديد يعترف فيه بما سبق ويقول " واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقه في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم ...... فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ..... فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أو سعوا في وضع الأحاديث "[5]

وإذا نحينا جانبا تلك الاعترافات الواضحة وانتقلنا إلى جانب الأمثلة التطبيقية فأظن أن المقام يضيق بنا كثيرا إذا حاولنا أن نتتبع الأحاديث الموضوعة والمكذوبة في كتب الشيعة ولذا فسوف نقتصر على إيراد عدد من الأمثلة القليلة ، والتي تجمع ما بين سقوط السند وضعفه الشديد ، وتهافت المتن وبطلانه ، واشتماله على ما يتنافى مع الشرع والعقل معا .

ومن هذا القبيل ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل بأي لغة خاطبك ربك ليلة المعراج ؟ فقال : خاطبني بلغة علي بن أبي طالب عليه السلام ، وألهمني أن قلت : يا رب أخاطبتني أنت أم علي ؟ فقال يا أحمد ! شئ ليس كالأشياء ، ولا أقاس بالناس ، ولا أوصف بالأشياء ، خلقتك من نوري ، وخلقت عليا من نورك فاطلعت على سرائر قلبك ، فلم أجد على قلبك أحب من علي بن أبي طالب –عليه السلام فخاطبتك بلسانه ، كيما يطمئن قلبك "[6]

---

[1] – المجلسي : بحار الأنوار ٢ / ١٦٣ ، والعاملي : وسائل الشيعة ٢٧ / ١٠٥ .

[2] – انظر د. القفاري : أصول مذهب الشيعة ١ / ٣٦٢ .

[3] – الطوسي : اختيار معرفة الرجال ١ / ٣٢٤ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٢٥ / ٢٨٧ ، و الخوئي : معجم رجال الحديث ١١ / ٢٠٦ .

[4] – المامقاني : تنقيح المقال ١/١٧٤–١٧٥، ود. القفاري : أصول مذهب الشيعة ١ / ٣٦٢ .

[5] – ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٨ ، ٤٩ .

[6] – المجلسي : بحار الأنوار ١٨ / ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨ / ٣١٢ ، ١٠٧ / ٣١ ، والشاهرودي : مستدرك سفينة البحار ٤ / ٤١٢ .

كذلك نسبوا للرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال " لما خلق الله – تعالى – آدم ، ونفخ فيه من روحه ، عطس آدم فقال : الحمد لله ، فأوحى الله تعالى إليه : حمدتني عبدي ، وعزتي وجلالي ، لولا عبدان أريد أن أخلقهما في دار الدنيا ما خلقتك قال : إلهي فيكونان مني ؟ قال : نعم يا آدم ارفع رأسك وانظر ، فرفع رأسه ، فإذا هو مكتوب على العرش : لا إله إلا الله ، محمد نبي الرحمة ، على مقيم الحجة ، ومن عرف حق علي زكا وطاب ، ومن أنكر حقه لعن وخاب ، أقسمت بعزتي أن أدخل الجنة من أطاعه ، وإن عصاني ، وأقسمت بعزتي أن أدخل النار من عصاه وإن أطاعني "[1]

ولا شك أن هذا الحديث الموضوع يتضمن معنى في غاية البطلان حيث يزعم أن من أطاع عليا رضي الله عنه دخل الجنة وإن عصى الله ، وأن من عصاه دخل الجنة وإن أطاع الله ويبدو أن واضع الحديث لم ينتبه إلى أنه ينتقص عليا رضي الله دون أن يدري لأنه يتصور إمكان أن يأمر رضي الله عنه أحدا بمعصية الله ، أو ينهاه عن طاعة الله .

ومن الأحاديث التي لا يخفى وضعها وكذبها حديث أنه " إذا كان يوم القيامة وضع منبر يراه جميع الخلائق ، فيصعد عليه رجل فيقوم عن يمينه ملك ، وعن يساره ملك ، ينادي الذي عن يمينه : يا معشر الخلائق هذا علي بن أبي طالب يدخل الجنة من يشاء ، وينادي الذي عن يساره : يا معشر الخلائق هذا علي بن أبي طالب يدخل النار من يشاء "[2]

ولا يقتصر الوضع عند الشيعة على مجال العقائد وحده بل يمتد أيضا إلى مجال الأحكام العملية ومن ذلك مثلا مسألة زواج المتعة والتي حاولوا ترغيب أتباعهم فيها فوضعوا أحاديث عديدة في فضلها تتضمن مبالغات لا يقبلها نقل أو عقل ، ومن تلك الأحاديث أنه " ما من رجل تمتع ثم اغتسل إلا خلق الله من كل قطرة تقطر منه سبعين ملكاً ، يستغفرون له إلى يوم القيامة ، ويلعنون متجّنبها إلى أن تقوم الساعة "[3] .

---

[1] – المجلسي : بحار الأنوار ٢٧ / ١٠ ، وهاشم البحراني : مدينة المعاجز ٢ / ٣٦٩ .

[2] – المجلسي : بحار الأنوار ٧ / ٣٢٩ .

[3] – المفيد : رسالة المتعة ص ٩ ، والحر العاملي : وسائل الشيعة ٢١ / ١٦ ، والمجلسي : بحار الأنوار ١٠٠ / ٣٠٧ .

ومن نماذج غلو الشيعة الشديد في فضل زيارة قبر الحسين في كربلاء زعمهم أن " من زار الحسين كمن زار الله في عرشه "[1] كما زعموا أن ما يناله الزائر من الفضل والثواب يعدل الحج والعمرة والغزو بعشرات المرات "[2]

ولست أدرى كيف يمكن لأحد أن يستسيغ تلك المبالغة الممجوجة على مثل هذه الزيارة التي تفوق فريضة الحج والجهاد ثم إن من المستغرب حقا أن الشيعة لا يرتبون مثل هذا الفضل العظيم على زيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وزيارة قبر علي رضي الله عنه مع أنه لا يشك أحد في أنهما أفضل من الحسين رضي الله عنه .

٣- المعتقدات الخرافية

وقد اشتمل التشيع على كثير من المعتقدات الخرافية ، المخالفة للنقل والعقل معا ، والتي حاول القوم أن يعضدوها بروايات منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم أو لأئمة أهل البيت كي يستسيغ الأتباع قبولها ، رغم كل ما تشتمل عليه من خرافة ، وتناقض صريح مع دين الله ومقررات الفطرة السليمة والعقل السديد .

وثمة أمثلة كثيرة لما يعتقده عوام الشيعة من خرافات وحماقات ، وقد عرض ابن تيمية للكثير منها ونقده نقدا قويا[3] ، ولكننا سنعرض عنها نظرا لأن آراء العوام ليست حجة علي أي مذهب ، وإنما العبرة بما هو مدون في مصادر المذهب وكتب علمائه المعتبرين .

ومن نماذج هذا النوع الثاني اعتقادهم في مكانة الأئمة ، وغلوهم الشديد في سائر ما يتعلق بهم من صفات ، حتى إنهم أخرجوهم من طور البشرية إلى طور آخر ، ففي الكافي أن عليا رضي الله عنه كان يقول " أنا قسيم الله بين الجنة والنار ، وأنا الفاروق الأكبر ، وأنا صاحب العصا والميسم ، ولقد أقرت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد صلى الله عليه

---

[3]- الصدوق : الأمالي ص ١٨٢، والطوسي : تهذيب الأحكام ٦ /٥١ ، والمجلسي: بحار الأنوار٩٧ /١١٩ .

[4]- جعفر بن محمد بن قولويه : كامل الزيارات ص ٣١٦ ، والصدوق : الأمالي ص ٢٠٧ ، ومن لا يحضره الفقيه ٢ / ٥٨٠ ، والحر العاملي : وسائل الشيعة ١٤ / ٤٩٥ ، والمجلسي : بحار الأنوار ٩٨ / ٨٥ وانظر أيضا الخوميني : كشف الأسرار ص ٨٤ .

[3] - انظر ابن تيمية : منهاج السنة ١ / ٣٧ .

وآله... ولقد أعطيت خصالا ما سبقني إليها أحد قبلي ، علمت المنايا والبلايا ، والأنساب ، وفصل الخطاب ، فلم يفتني ما سبقني ، ولم يعزب عني ما غاب عني "[1]

كذلك نسبوا لعلي رضي الله عنه أنه قال " إن رسول الله صلى الله عليه وآله علمني ألف باب من الحلال والحرام، ومما كان ومما يكون إلى يوم القيامة، كل باب منها يفتح ألف باب ، فذلك ألف ألف باب ، حتى علمت المنايا والبلايا، وفصل الخطاب"[2]

ولا يقتصر هذا الغلو الشديد على علي رضي الله عنه وحده بل يمتد لبقية الأئمة ، ومن نماذج ذلك ما رووه عن الحسن بن علي قال " إن لله مدينتين : إحداهما بالمشرق ، والأخرى بالمغرب عليهما سوران من حديد ، وعلى كل مدينة ألف ألف مصراع من ذهب ، وفيها سبعون ألف ألف لغة ، يتكلم كل لغة بخلاف لغة صاحبه ، وأنا أعرف جميع اللغات وما فيها وما بينهما ، وما عليهما حجة غيري والحسين أخي"[3] .

كذلك يعتقد الشيعة أن لتربة قبر الحسين مكانة خاصة ، وأنها الكفيلة لشفاء الأدواء والأسقام بشتى أنواعها وأشكالها ، وقد ذكر المجلسي صاحب البحار ما يصل إلى ثلاث وثمانين رواية عن تربة الحسين وفضلها وآدابها وأحكامها[4] وقد جعلت هذه الرّوايات من تلك التّربة البلسم الشّافي من كلّ داء ، والحصن الحصين من كلّ خوف ، يشرب منها المريض فيتحوّل إلى صحيح، كأن لم يكن به بأس ، ويحنّك بها الطّفل فتكون أمانا له ، وحرزا من الأخطار وتوضع مع الميّت في قبره لتقيه من العذاب ، ويمسك بها الرّجل يعبث بها ساهيًا يقلّبها فيكتب له أجر المسبّحين، لأنّها تسبّح بيد الرّجل من غير أن يسبّح[5] .

وإلى جانب المعتقدات السابقة فهناك كم هائل من الروايات الواردة في أصح كتب الشيعة والتي لا يشك أحد في عدها ضمن الخرافات والقصص الكاذبة ، ولست أدري حقا ماذا يقول الشيعة عما ورد في أوثق الكتب عندهم وهو الكافي عن علي رضي الله عنه أنه قال عن عفير حمار

---

[1] – الكليني: الكافي ١ /١٩٦ ، ١٩٧، والصدوق : بصائر الدرجات ١ / ١٦٤، والطوسي : الأمالي ص ٢٠٦ .

[2] – الكليني : الكافي ١ / ٢٩٧ ، والصدوق : الخصال ص ٦٤٣ .

[3] – الصفار : بصائر الأنوار ص ٣٥٩ ، والمجلسي بحار الأنوار ٢٧ / ٤١ .

[4] – انظر المجلسي : بحار الأنوار ٩٨ / ١٣٦ .

[5] – انظر د. القفاري : أصول مذهب الشيعة الإمامية ٢ / ٤٨٩ – ٤٩٣ .

الرسول صلى الله عليه وسلم " إن ذلك الحمار كلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : بأبي أنت وأمي : إن أبي حدثني ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبيه أنه كان مع نوح في السفينة فقام إليه نوح فمسح على كفله ثم قال : يخرج من صلب هذا الحمار حمار يركبه سيد النبيين وخاتمهم ، فالحمد لله الذي جعلني ذلك الحمار "[1]

وإذا كان التصوف قد شهد ما يعرف بالشطحات والتي صدرت عن بعض أئمة القوم وتضمنت عبارات خطيرة ومتجاوزة لكل حد ، فإننا نلحظ أيضا أن لدى بعض الشيعة شطحات وغلوا شديدا غير مقبول ولا مستساغ في مكانة الأئمة ومنزلتهم ، وإن كان ثمة فارق بين هذين النوعين من الشطحات ، حيث تتعلق شطحات المتصوف بذاته وإحساسه الداخلي وتصوره أنه اتحد بالله فقال سبحاني ما أعظم شاني ، أو ما في الجبة إلا الله ، وما أشبه ذلك ، أما الشيعي فإن جل شطحاته تدور حول الغلو في الأئمة وإسباغ الصفات الخارقة للعادة عليهم ، ومن تلك الشطحات الخطيرة والتي تتجاوز بعلي رضي الله عنه مرتبة البشر إلى ما وراء ذلك ما نسبوه إليه أنه قال عن نفسه في نص مطول " أنا الحاشر إلى الله ، وأنا كلمة الله التي يجمع بها المفترق ويفرق بها المجتمع . وأنا أسماء الله الحسنى ، وأمثاله العليا ، وآياته الكبرى ، وأنا صاحب الجنة والنار ، أسكن أهل الجنة الجنة ، وأسكن أهل النار النار ، وإلي تزويج أهل الجنة وإلي عذاب أهل النار ، وإلي إياب الخلق جميعا "[2]

وأظن أننا لسنا في حاجة لبيان الخلل العقدي الخطير في هذا الكلام ويكفي للرد عليه أن نسوق قول الله تعالى آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(سورة الأعراف :١٨٨) وإذا كان هذا هو حال سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فكيف يكون حال من دونه مهما عظم قدره ، وعلت منزلته ومكانته ؟

---

[1] – الكليني : الكافي ١ / ٢٣٧ ، والصدوق : علل الشرائع ١ / ١٦٧ ، والمجلسي : بحار الأنوار ١٧ / ٤٠٥ ، والنوري : مستدرك الوسائل ٨ / ٢٦٩ .

[2] – المجلسي : بحار الأنوار ٥٣ / ٤٧ – ٤٩ .

ثانيا : حشوية الكرامية[1]

ويعتبر الكرامية أشهر من أدرجوا في عداد الحشوية ، وذلك لما عرف عنهم من القول بالتجسيم والتشبيه ، والغلو في إثبات صفات الله تعالى على وجه مماثل لصفات البشر ومخالف للنظرة الإسلامية التي تنزه الباري تعالى عن ذلك ، وتقطع بأنه سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الشورى : ١١) ومن أبرز جوانب الحشو لدى الكرامية آراؤهم في باب الصفات ، حيث أسرفوا في الإثبات وتبنوا مجموعة من الأقوال الصريحة أو شبه الصريحة في دلالتها على التشبيه والتجسيم ، ومن ذلك ما يلي :-

أ- قولهم صراحة بأن الله سبحانه وتعالى جسم ، وقد عزا إليهم تلك المقالة الكثير من المصنفين في الفرق ، وعدوهم بسببها ضمن المشبهة والمجسمة[2] ، كما نقل عن ابن كرام وصف الله بأنه جوهر[3] ، وحكى ابن تيمية أن الكرامية متفقون على أن الله سبحانه جسم ، وإن كانوا مختلفين في المراد بالجسم ، وهل يقصد به الموجود القائم بنفسه أو يراد به أنه مركب[4] وقد حاول بعض أئمة المذهب ممن جاءوا بعد ابن كرام حمل لفظ الجسمية على محمل مقبول كما سنشير لذلك فيما بعد .

[1] - والكرامية منسوبون لمحمد بن كرام السجستاني المتوفى (٢٥٥ هـ) وانظر في ترجمته:- ابن عساكر : تاريخ دمشق ٥٥ / ١٢٧ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١١ / ٥٢٣ ، وميزان الاعتدال ٦ / ٣١٤ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ٢٠ ، وراجع ترجمة موسعة له في كتاب د. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ٤٥ – ٦٦ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٥٧ .

[2] - انظر الجويني : الشامل ص ٢٨٨ ، وابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص ٣٦٦ ، و عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٠٣ و الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١١ ، والشهرستاني : نهاية الأقدام ص ٦٣ ، و الملل والنحل ١ / ١٠٨ ، والمقدسي : البدء والتاريخ ٥ / ١٤١ ، وابن حزم : الفصل ، والخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٢٠ ، والآمدي : غاية المرام ص ١٨٠ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٩٨، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٨٧ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٦٣ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية ص ٢٩٨ .

[3] - انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٠٣ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٨ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٩٩ .

[4]- انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٥ / ٤٢٨ .

ب- الغلو والمبالغة في إثبات عدد من الصفات ومنها صفة الاستواء ، حيث ذهبوا إلى أن الله تعالى مماس للعرش من الصفحة العليا ، وجوزوا عليه الانتقال والتحول والنزول ، ومنهم من قال : إنه على بعض أجزاء العرش ، وقال بعضهم : امتلأ العرش به ، وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق وأنه محاذ للعرش ، ثم اختلفوا في كيفية ذلك على أقوال كثيرة[١]

ولا أظن أننا بحاجة للاسترسال في بيان فساد تلك الآراء السابقة وإثبات مخالفتها التامة لحقائق الإسلام وقطعيات النصوص القرآنية الدالة على تنزيه الله سبحانه وليس بمستبعد أن يكون الكرامية قد تلقوها من مصادر فلسفية خارجية ، سواء أكانت الثنوية أو الفلسفة الرواقية كما ذهب إلى ذلك الكثير من المتقدمين والمتأخرين[٢] .

ولعل من المهم أن نشير إلى ظهور بعض الشخصيات المنتمية لمذهب الكرامية والتي حاولت أن تحسن صورة المذهب ، وأن تزيل ما علق به من وصمة التشبيه من خلال تقديم تفسيرات جديدة لآراء المذهب المصرحة بالتجسيم ، ومن أبرز هذه الشخصيات محمد بن الهيصم والذي اجتهد - كما يقول الشهرستاني - في إرمام مقالة ابن كرام في كل مسألة حتى ردها من المحال الفاحش إلى نوع يفهم فيما بين العقلاء ، مثل التجسيم ، فإنه قال : أراد بالجسم : القائم بالذات ، ومثل الفوقية فإنه حملها على العلو ، ومثل الاستواء فإنه نفى المجاورة والمماسة والتمكن بالذات[٣] .

ولم يكتف ابن الهيصم بهذا التخريج الجزئي للمسائل المستنكرة في المذهب ، بل حاول أن يؤسس أصلا عاما في هذا الباب ينفي فيه أي وجه للماثلة بين قول الكرامية من جهة وقول المشبهة من جهة أخرى معللا ذلك بأن " أن الذي أطلقه المشبهة على الله عز و جل من : الهيئة والصورة والجوف والاستدارة والوفرة والمصافحة والمعانقة ونحو ذلك لا يشبه سائر ما أطلقه الكرامية من : أنه خلق آدم بيده ، وأنه استوى على عرشه ، وأنه يجيء يوم القيامة

---

[١] - انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٠٤ ، الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٧ ، والرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦٧ ، ود.محمد بن خليفة التميمي : مواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات ص ١٣٣ ، ود. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ٢٠٣ .

[٢] - انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٠٣ ، و الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١١ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية ص ٢٩٨ .

[٣] - انظر الشهرستاني : نهاية الأقدام ص ٦٤ ، والملل والنحل ١ / ١١٠ ، وابن تيمية : بيان تلبيس الجهمية ١ / ٤٦ .

لمحاسبة الخلق ، وذلك أنا لا نعتقد من ذلك شيئا على معنى فاسد : من جارحتين وعضوين تفسيرا لليدين ، ولا مطابقة للمكان واستقلال العرش بالرحمن تفسيرا للاستواء ، ولا ترددا في الأماكن التي تحيط به تفسيرا للمجيء ، وإنما ذهبنا في ذلك إلى إطلاق ما أطلقه القرآن فقط من غير تكييف وتشبيه ، وما لم يرد به القرآن والخبر فلا نطلقه كما أطلقه سائر المشبهة والمجسمة"[1]

وربما كانت آراء ابن الهيصم هذه هي التي دفعت البعض لعدم إدراج الكرامية ضمن المشبهة الخلص المساوين بين صفات الله وصفات البشر ، واعتبارهم مثبتة للصفات تجاوزوا حد الوسطية ووقعوا في شيء من الغلو[2] .

لكن ذلك – في رأيي – لا ينبغي أن يمنعنا من توجيه النقد الواضح لآراء الكرامية السابقة وما وقعوا فيه من غلو وإسراف في الإثبات ، ويكفي أن وصفهم بأن الله جسم وتصورهم الفاسد لصفة الاستواء أمر مرفوض مهما قدموا من مبررات ، وما أغنانا عن هذا الخلل والخطأ كله بالوقوف عند منهجية القرآن التي تجمع في توازن بديع بين الإثبات والتنزيه فالله سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الشورى : ١١)

وإذا تجاوزنا هذا الجانب الأبرز من جوانب الحشو عند الكرامية – وهو القول بالتشبيه والتجسيم – فإن هناك جوانب أخرى من جوانب الحشو قد ظهرت لديهم بوضوح ، وتمثلت في رواية الأحاديث الموضوعة والمكذوبة ، وتبني بعض الآراء الشاذة والمنحرفة .

أما رواية الموضوعات فقد تتابعت نصوص علماء الجرح والتعديل من المحدثين في تضعيف ابن كرام من حيث الرواية ، وحكموا عليه بأنه ساقط الحديث ويروي الواهيات ، كما أنه أكثر من الرواية عن رجلين من أسوأ الوضاعين ، وهما الجويباري وابن تميم ، وقد قيل إنهما وضعا مئة ألف حديث[3] ، وقد نبه ابن حبان إلى أن المحدثين ما تركوا الرواية عن ابن كرام وأصحابه لقولهم

---

[1] – الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١١٠ ، وانظر أيضا د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٣٠٥ .

[2] – انظر د. محمد خليل هراس : ابن تيمية السلفي ص ١٠٣ ، ود. محمد بن خليفة التميمي : مواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات ص ١٣٢ ، ود. جابر إدريس : مقالة التشبيه١ / ٣٠٢، وعبد الرحمن بن عايد القصير : القدر المشترك في معاني الصفات ص ١٧٨ – ١٨٠ .

[3] – ابن عساكر : تاريخ دمشق ٥٥ / ١٢٧ ، وابن الجوزي : الضعفاء والمتروكين ٣ / ٩٥ ، والمنتظم ١٢ / ٩٧ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١١ / ٥٢٣ ، و لسان الميزان ٦ / ٣١٤ ، والمغني في الضعفاء ٢ / ٦٢٧ ، وابن حجر : لسان الميزان ٥ / ٣٥٣ .   ،

بالإرجاء فقط ، وإنما كان السبب في تركهم أنهم كانوا يضعون الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

وربما كان الأخطر من رواية ابن كرام وأصحابه للموضوعات ما نسب إليهم من القول بجواز وضع الأحاديث على الرسول وأصحابه وغيرهم ، لا سيما في الترغيب والترهيب والزجر عن المعصية ، محتجين في ذلك – مع كونه خلاف إجماع من يعتد به من المسلمين– بأن الكذب في الترغيب والترهيب هو للشارع لكونه مقويا لشريعته لا عليه ، والكذب عليه إنما هو كان يقال إنه ساحر أو مجنون ، أو نحو ذلك مما يقصد شينه به وعيب دينه[٢] .

ولا يخفى تهافت هذا الكلام فالكذب كله كذب ، وصاحبه داخل تحت الوعيد الوارد في حديث " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "[٣] وقد أرسل ابن كرام إلى إمام الحديث الأشهر البخاري يسأله عن أحاديث ، منها حديث أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فكتب البخاري على ظهر كتابه : من حدث بهذا استوجب الضرب الشديد والحبس الطويل[٤] .

ومن الأحاديث الظاهرة الوضع والكذب والتي اختلقها نفر من الكرامية نصرة لمذهبهم ما نسبوه للنبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " يجيء في آخر الزمان رجل يقال له محمد بن كرام يحيى السنة والجماعة ، هجرته من خراسان إلى بيت المقدس كهجرتي من مكة إلى المدينة "[٥] والمتهم بوضع هذا الحديث رجل من الكرامية اسمه إسحاق بن محمشاذ ، وكان كذاباً يضع الحديث على مذهب الكرامية ، وله كتاب مصنف في فضائل محمد بن كرام كله كذب موضوع[٦] .

---

[١] – ابن حبان : المجروحين ٢ / ٣٠٦ ، وابن عدي : الكامل ١ / ١٧٧ ، والسمعاني : الأنساب ٤ / ٣٧٧ .

[٢] – انظر ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ٥٧ ، وابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص ١٠٠ ، والنووي : شرح صحيح مسلم ١ / ٥٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ٢٠ ، وابن حجر : النكت على ابن الصلاح ٢ / ٨٥٤ ، والسخاوي : فتح المغيث ١ / ٢٦٢ ، والسيوطي : تدريب الراوي ١ / ٢٨٤ .

[٣] – رواه البخاري (١٠٧) ومسلم (٤)

[٤] – الذهبي : لسان الميزان ٦ / ٣١٤ ، ابن حجر : لسان الميزان ٥ / ٣٥٤ .

[٥] – ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ٣٥٦ ، والذهبي : المغني في الضعفاء ١ / ٧٤ ، وميزان الاعتدال ١ / ٣٥٣ ، وابن حجر : لسان الميزان ١ / ١٩٣ ، وسبط ابن العجمي : الكشف الحثيث ص ٦٦ .

[٦] – ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ٣٥٦ ، والذهبي : المغني في الضعفاء ١ / ٧٤ .

كذلك وضع بعض الكرامية أحاديث مكذوبة نصرة لرأيهم في بعض المسائل الكلامية ومنها مسألة الإيمان وهل يزيد وينقص أم لا ، ولما كانوا من المرجئة القائلين بعدم الزيادة والنقصان فقد وضعوا حديثا نصه " الإيمان لا يزيد ولا ينقص "[١]

وأما الآراء الشاذة والمنحرفة لدى الكرامية فمنها : نفي عصمة الأنبياء ، وتجويز وقوع الكبائر منهم حاشا الكذب[٢] وقد ذهب بعض الكرامية إلى أن كل ذنب أسقط العدالة أو أوجب حدا فهم معصومون منه ، لكنهم غير معصومين مما دون ذلك ، وقال بعضهم لا يجوز الخطأ عليهم في التبليغ وأجاز ذلك بعضهم ، وزعم أن النبى عليه السلام أخطأ في التبليغ وذكروا قصة الغرانيق[٣] .

وأقول إنه لا يخفى بطلان هذا القول ، وما يلزم عن التشكيك في عصمة الأنبياء عن كبائر الذنوب والخطأ في تبليغ الدعوة من زعزعة للثقة في صدقهم وأمانتهم ، وتبليغهم رسالة الله للبشر على الوجه الأكمل ، والمطابق تماما لما أنزله الله عليهم ، وأما قصة الغرانيق المزعومة التي أشاروا إليها فيقصدون بها ما روي عن سعيد بن جُبير، أنه قال: لما نزلت هذه الآية:(أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى)(النجم : ١٩) قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال المشركون: أنه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه، فأنزل الله:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)... إلى قوله:(عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)(سورة الحج : ٥٢-٥٥)"[٤]

وقد أثبت علماء الحديث بالأدلة القاطعة وضع تلك الرواية وعدم صحتها ، وبينوا أنها قصة سقيمة السند ومتهافتة المتن ، ومخالفة لسياق الآيات وتفسيرها ، وقد ذكر ابن خزيمة أنها من

---

[١] – السيوطي : اللآلئ المصنوعة ١ / ٤٢ .

[٢] – انظر ابن حزم : الفصل ٤ / ٢ ، والإحكام ١ / ١٢٢ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١١ / ٥٢٤ ، وتاريخ الإسلام ١٩ / ٣١٥ .

[٣] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢١٠ .

[٤] – الطبري : جامع البيان ١٨ / ٦٦٦ .

وضع الزنادقة[1] ، وممن نص على بطلانها أيضا كل من ابن العربي ، والقاضي عياض والقرطبي ، والعيني ، والكرماني ، والشوكاني ، والآلوسي ، والألباني ، وغيرهم[2] .

لكن تبقى ملاحظة جديرة بالنظر هنا ، وهي أن الكرامية وإن كانوا حشوية في عدد من أبواب الاعتقاد وأصول الدين كباب الصفات مثلا ، فإنهم تبنوا آراء عقدية في أبواب أخرى لا تمت للحشو بصلة ، بل إنها تشتمل على تأويل للنصوص ، وصرف لها عن ظواهرها ، كما يبدو فيها تأثرهم الواضح بمن سبقهم من الفرق الكلامية .

ومن الأمثلة على ذلك مذهبهم في مفهوم الإيمان ، حيث أطبقت كتب الفرق على نسبة القول بأشد درجات الإرجاء غلوا إليهم ، وهي القول بأن المراد بالإيمان هو قول اللسان فحسب ، دون التصديق بالقلب ، ودون سائر الأعمال ، كما أنكروا أن تكون معرفة القلب أو شئ غير التصديق باللسان إيمانا ، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والتكذيب ، والإنكار له باللسان[3] .

وقد وصل الغلو بهم في الإرجاء إلى القول بأنه ليس المقصود بقول اللسان ما يقوله القائل الآن أنه لا إله إلا الله ، ولكن المقصود به القول الذي صدر عن ذرية آدم في وقت الميثاق حين قال الله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)(الأعراف : ١٧٢) ويقولون إن ذلك القول باق أبدا لا يزول حكمة إلا أن يرتد عنه ، فحينئذ يزول حكمه ، وقالوا إن الزنديق أو المنافق إذا قال بلسانه لا إله إلا الله وفي قلبه النفاق والزندقة فهو مؤمن ، وإن كان في الآخرة من أهل النار ٤.

---

[1] – انظر الرازي : التفسير الكبير ٢٣ / ٤٤ .

[2] – انظر تفصيل ذلك كله في رسالة الشيخ الألباني : نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

[3] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ١٤١ ، وعبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص٢١١ ، ٢١٢ ، و الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٥ ، ١١٦ ، وابن حزم : الفصل ٤ / ١٥٥ ، وأبو سعيد النيسابوري : الغنية في أصول الدين ص ١٧٣ ، والجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق ١ / ١٢٩ ، والمقدسي : البدء والتاريخ ٥ / ١٤٥ ، والشهرستاني : نهاية الأقدام ص ٢٦٣ ، والملل والنحل ١ / ١١٣ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٧٥ .

[4] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص٢١١ ، ٢١٢ ، و الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٥ ، ١١٦ ، والرازي : التفسير الكبير ٢ / ٢٤ ، وابن تيمية : النبوات ص ١٤٤ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٣٠٧ .

ومن الواضح أن مذهب الكرامة في مفهوم الإيمان مبني على عدة أسس كلامية وفلسفية أبرزها أن الإيمان حقيقة واحدة وماهية مجردة لا تتبعض أو تتجزأ كما لا تقبل الزيادة والنقصان ، مثل حقيقة الإنسانية مثلا ، ثم إنهم جعلوا الإيمان قائما على تذكر الإقرار الفطري الأول في عالم الذر وليس إنشاء جديدا[١] ، ولا يخفى مدى الخطأ الذي تنطوي عليه تلك الأسس ، ففضلا عن مخالفتها للشرع نجد أن أصحابها قد ظنوا أن الحقائق الكلية يمكن أن توجد في الواقع هكذا ، مع أن الكليات لا وجود لها إلا في الذهن ، ولا توجد في الواقع إلا مشخصة وجزئية[٢] ، وهكذا الإيمان لا يوجد إلا ممثلا في إيمان زيد أو عمرو ، وهو متفاوت من شخص لآخر ، أما الإيمان كحقيقة مطلقة فيمكن إدراكه وتصوره عقلا ، لكن لكي يوجد في عالم الواقع فلابد أن يظهر في ذات مؤمنة معينة .

أما القول بأن الإيمان ليس سوى التذكر للميثاق الأول فهذا كلام غير صحيح ولم يرتب الشرع الثواب والعقاب على هذا الميثاق فحسب ، وإنما أنزل الكتب وأرسل الرسل لتأكيد هذا الميثاق ، وجعل العقوبة متوقفة على إرسالهم كما قال سبحانه (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)(الإسراء : ١٥) ومن الواضح أن هناك نوعا من التشابه بين قول الكرامية هذا وبين النظرية الأفلاطونية في المعرفة وليس من المستبعد أن يكون هناك نوع من التأثير المباشر أو غير المباشر لتلك النظرية[٣] .

وربما كان الأغرب مما سبق موقف الكرامية من قضية التحسين والتقبيح ، حيث وافقوا المعتزلة في القول بأن العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها قبل ورود الشرع ، كما أوجبوا معرفة الله عقلا ، وفعل الحسن واجتناب القبيح ولو لم ترد بذلك شريعة[٤] ، وقد ترتب على اعتناق الكرامية لهذا الأصل الاعتزالي عدد من اللوازم والآراء ، منها قولهم بأنه يجب أن يكون أول شئ خلقه الله تعالى جسما حيا يصح منه الاعتبار ، وزعموا أنه لو بدأ بخلق الجمادات لم يكن حكيما ، كذلك

---

[١] – انظر د. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ٣٠٤ ، ود. فيصل عون : علم الكلام ومدارسه ص ١٧٦ .

[٢]– انظر ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٨٤ ، ودرء التعارض ١ / ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٦ / ٩٦ ، وبغية المرتاد ٢ / ٢٤٨ ، ود. عبد الرحمن المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١ / ٢٤٥ .

[٣] – انظر د. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ٣٠٥ .

[٤] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٠٨ – ٢١٠، و الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٤، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١١٣ ، وابن تيمية : درء التعارض ٨ / ٥٦ ، ٩ / ٦٥ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٣٠٦ ، و د. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٤٨ – ١٥٠ .

قالوا بأنه لا يجوز في حكمة الله تعالى اخترام الطفل الذي يعلم أنه إن أبقاه إلى زمان بلوغه آمن ، ولا اخترام الكافر الذي لو أبقاه إلى مدة آمن ، إلا أن يكون في اخترامه إياه قبل وقت إيمانه صلاح لغيره[1] .

ولا يخفى مدى القرب الشديد لهذا الرأي من قول المعتزلة المعروف بوجوب الصلاح والأصلح[2] ، وقد ذكر الإسفراييني أن الكرامية لحقوا بالمعتزلة في القول " بالواجبات العقلية قبل ورود الشرع ، وفي القول بإيجاب أشياء وحظر أشياء على الله تعالى ، وترتيبهم عليه شريعة كما رتبها عليهم "[3]، كذلك ذهبت الكرامية إلى أن من لم تبلغه دعوة الرسل فقد لزمه أن يعتقد موجبات العقول وأن يعتقد أن الله تعالى أرسل رسلا إلى خلقه ، كما قالوا إن الله تعالى لو اقتصر على رسول واحد من أول زمان التكليف إلى القيامة وأدام شريعة الرسول الأول لم يكن حكيما[4] ، والمستغرب حقا أن أكثر المعتزلة قد سبقوهم إلى القول بوجوب اعتقاد موجبات العقول ، لكن لم يقل أحد قبلهم بوجوب اعتقاد وجود الرسل قبل ورود الخبر عنهم بوجودهم[5] .

وفي ظني أن تبني الكرامية لهذا الرأي الذي يغالي في قيمة العقل ودوره ، وتأثرهم الواضح بالمعتزلة يدل على أنهم لم يكونوا حشوية على طول الخط ، وإنما في أبواب كلامية دون أخرى ، ولعل في هذا دليلا واضحا يشهد لما قررناه أكثر من مرة في ثنايا هذا البحث من أن الحشو يعتبر بمثابة تيار عام يوجد لدى الكثير من الفرق والطوائف ، وقد يظهر في باب عقدي دون آخر من غير أن يستلزم بالضرورة تبني هذه الفرقة أو تلك للمنهج الحشوي في كل أبواب الاعتقاد .

وإذا انتقلنا من مجال العقائد إلى مجال الأحكام العملية فسوف نلاحظ أن نزعة الشذوذ والغرابة في الآراء عند الكرامية لم تقتصر على جانب العقيدة ، وإنما امتدت أيضا إلى جانب الفقه[6] ، حيث نسب إلى ابن كرام أنه " أبدع في الفقه حماقات لم يسبق إليها "[7] ومن تلك الآراء القول بأن المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود ولا قيام ولا قعود ولا تشهد ولا سلام ، ومنها

---

[1] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

[2] – انظر د. سهير مختار : التجسيم عند المسلمين ص ١٥٠ .

[3] – الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٤ .

[4] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

[5] – المصدر السابق ٢١١ .

[6] – عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣٤٩ – ٣٧٠ .

[7] – المصدر السابق ص ٢٢٣ .

قوله بصحة الصلاة في ثوب كله نجس ، وعلى أرض نجسة ومع نجاسة ظاهر البدن وإنما الواجب الطهارة عن الأحداث دون الأنجاس ، ومنها قوله بأن غسل الميت والصلاة عليه سنتان غير مفروضتين وإنما الواجب كفنه ودفنه [١] .

والحق أنه ليس بين أيدينا شيء من كتب القوم أنفسهم لنتحقق من مدى صحة تلك الآراء وما حجتهم في القول بها ، وكل ما لدينا مجرد نقول منسوبة إليهم في كتب خصومهم من المصنفين في الفرق ، وهي أمور ينبغي التعامل مها بنوع من الحذر ، أما إذا ثبت فعلا أنهم قالوا بتلك الآراء فتفسيرنا لذلك هو أن نزعة الحشو إذا استولت على عقلية ما فمن الصعب أن تظل محصورة في جانب الاعتقاد وحده ، إنما المتوقع أن تمتد إلى سائر جوانب الدين التي يتناولها ذلك المتأثر بالحشو .

ثالثا : حشوية الصوفية

وقد ظهر الحشو لدى الصوفية كما ظهر لدى غيرهم من الاتجاهات الأخرى وأظننا لا نكون مجافين للمنطق العلمي إذا قلنا إن البيئة الصوفية بطبيعتها وخصائصها وسمات المنتمين إليها تمثل تربة خصبة لنشوء الحشو والحشوية .

وينبغي ألا يفهم من كلامنا هذا التعميم التام ، أو وسم كل صوفي بأنه لابد أن يكون حشويا بالضرورة ، وإنما نعني بذلك أن البيئة الصوفية بها عدد من الخصائص البارزة والشائعة لدى كثير من الصوفية ، والتي تسهم بصورة أو بأخرى في ظهور الحشو لدى الأتباع الجاهلين ، أو المقلدين عديمي التحقيق ، أو المغرضين ممن اتخذوا التصوف سبيلا لتمرير اعتقاداتهم الباطلة وأفكارهم المنحرفة ، ومن أبرز الخصائص التي نقصدها ما يلي :-

أ- انتشار الغلو بأنواعه المتعددة لدى قطاع كبير من الصوفية ، فهناك غلو في الأنبياء ، وفي الأولياء والصالحين ، ومبالغة شديدة في مدحهم وتعداد مناقبهم ، وإسباغ عدد من الصفات التي تكاد تخرجهم من طورهم البشري وتنقلهم إلى طور آخر يتجاوز حد العدل والإنصاف الذي قررته

---

[١] - انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ١١٦ .

الشريعة ، وهناك غلو مماثل في الأماكن والبقاع ومنها قبور الصالحين ومشاهدهم ، وغلو في بعض أنواع العبادات وصورها .

وقد سبق أن ذكرنا أن الغلو يعد من أبرز الأسباب التي عملت على نشوء الحشو ، بل نستطيع أن نقول إنه لا يكاد يوجد حشو إلا وهو متضمن نوعا من الغلو ، إما في إثبات الصفات ، وإما في قبول كل ما يروى دون تمحيص وغير ذلك من ألوان الغلو ، ولذا جاءت نصوص الشرع قاطعة في النهي عن الغلو وذمه[1] فقال تعالى (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)(سورة النساء : ١٧١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم والغلو فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين "[2] .

ب- يمثل موقف الصوفية من العقل عاملا آخر في تهيئة الأجواء لظهور الحشو ، وقد كتبت بعض الدراسات حول موقف الصوفية من العقل[3] ، وصحيح أنها رجحت عدم معارضة عدد من محققي القوم ومشايخه الأوائل للعقل بالكلية ، لكن ذلك لا ينفي بحال أن التصوف بطبيعته واعتماده على التجربة الذوقية والكشفية لا يعول كثيرا على العقل وهو في نظر أتباعه ليس " ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة يصل إليها الإنسان عن طريق الخلوة والرياضية والمجاهدة ، والاشتياق بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى وهذا هو جوهر الشعور الصوفي "[4] .

وقد نبه بعض الصوفية المعاصرين إلى أن هذا العرفان الذوقي المباشر يعد بمثابة " معيار ابستمولوجي دقيق ، يميز التصوف عن غيره من الفلسفات ، فإذا كان الإنسان يعمد إلى اصطناع مناهج العقل في فلسفته لإدراك الحقيقة فهو فيلسوف ، أما إذا كان يؤمن بأن وراء إدراكات الحس واستدلالات العقل منهجا آخر للمعرفة بالحقيقة يسميه كشفا أو ذوقا أو ما شابه ذلك من التسميات ، فهو في هذه الحالة صوفي بالمعنى الدقيق للكلمة "[5]

---

[1]- انظر عبد الرحمن اللويحق : الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة ص ٦٤ .

[2]-رواه النسائي (٣٠٠٧)وأحمد (٣٠٧٨)

[3] – انظر على سبيل المثال د. محمد عبد الله الشرقاوي موقف الصوفية من العقل حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم (١٩٧٨م).

[4]-انظر د. عبد الحليم محمود : أبحاث في التصوف ، الملحق بتحقيق المنقذ من الضلال ص ٢٣٨.

[5]-د. أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٧ .

والذي يعنينا من هذا الأمر هو أن عدم تعويل الصوفية – أو على الأقل قطاع كبير منهم – على العقل ، والاعتماد على الذوق والكشف يفتح الباب أمام التصديق بكل ما يقال ويروى دون كثير تمحيص ، لا سيما وأن الخرق قد اتسع على الراقع مع تسلل الأدعياء وانتشار الطرق وتشعبها ، مما أشاع جوا مهيئا لقبول الأساطير والخرافات ، وكما أشار ابن تيمية فإن إهمال طوائف من الصوفية للعقل ومكانته قد جعلهم " يقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل ، ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز ، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها، ممن لم يعلم صدقه "[1]

ج– وثمة عامل آخر مهم وهو قلة عناية أكثر الصوفية بالعلم ولا سيما علم الحديث الذي يميز به بين صحيح المرويات وضعيفها ، مما جعل الكثير من كتب القوم مرتعا خصبا لانتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتي لا أصل لها ، وقد نقل عن نفر من الصوفية أقوال يفهم منها التنفير من طلب العلم الشرعي وتفضيل العلم الكشفي الذوقي عليه ، ومن هذا القبيل ما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال " أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت "[2] وكان أبو مدين إذا قيل له قال فلان عن فلان عن فلان يقول " ما نريد نأكل قديدا هاتوا ائتوني بلحم طري "[3] وقال ابن عربي " فشتان بين مؤلف يقول حدثني فلان رحمه الله عن فلان رحمه الله وبين من يقول حدثني قلبي عن ربي ، وإن كان هذا رفيع القدر فشتان بينه وبين من يقول حدثني ربي عن ربي أي حدثني ربي عن نفسه "٤

ويضاف لذلك ما اشتهر عن بعض الصوفية من تبني القول بتصحيح الأحاديث وتضعيفها عن طريق الكشف القلبي " وربما صح عندهم من أحاديث الأحكام ما اتفق غيرهم على ضعفه ، وتجريح رجاله ، وأما هم فيأخذون به من طريق الكشف ويتقيدون به "[5] وقد نص ابن عربي – في الفتوحات المكية – صراحة على هذا الأمر فقال " رب حديث

---

[1] – ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ٣٣٨ .

[2] – انظر الكلاباذي : التعرف ص ٦ ، وابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٣٩٢ ، وابن تيمية ١٠ / ٤١٣ ، والشعراني : الطبقات الكبرى ١ / ١١ .

[3] – ابن عربي : الفتوحات المكية ١ / ٢٨٠ .

[4] – المصدر السابق ١ / ٥٧ .

[5] - عبد العزيز سيد الأهل : التصوف الإسلامي ، أصوله ومحاذيره ، ص ١١٦ .

ضعيف قد ترك العمل به لضعف طريقه من أجل وضاع كان في رواته يكون صحيحا في نفس الأمر .... ورب حديث يكون صحيحا من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف الذي قد عاين هذا المظهر فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الحديث الصحيح فأنكره وقال له لم أقله ولا حكمت به ، فيعلم ضعفه فيترك العمل به عن بينة من ربه ، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه وهو في نفس الأمر ليس كذلك "[١]

ومن نماذج التطبيق العملي لهذا المسلك ما نقل عن أبي المواهب الشاذلي أنه قال" رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن الحديث المشهور' اذكروا الله حتى يقولوا مجنون ' وفي صحيح ابن حبان ' أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون '[٢] فقال : صدق ابن حبان في روايته ، وصدق راوي اذكروا الله ، فإني قلتهما معاً ، مرة قلت هذا ، ومرة قلت هذا "[٣]

ولا يخفى أن فتح باب التصحيح والتضعيف عن طريق المكاشفة يؤدي إلى الفوضى العلمية ويزعزع الثقة بقواعد المصطلح المقررة والصارمة والتي ارتضتها الأمة عبر العصور ومثلت ضمانة عظيمة لحفظ السنة ، كما كانت موضع فخر للأمة المسلمة على غيرها من الأمم التي ليس لها أسانيد ثابتة في نقل كتبها المقدسة ، وقد نص غير واحد من أهل العلم على أن هذا الأمر يعد خصيصة من خصائص أمة الإسلام[٤] .

د- ومن العوامل المهمة التي أسهمت في ظهور الحشو لدى الصوفية وجود عدد من الحالات غير العادية والتي ربما ظهرت على بعض مشايخ القوم وأئمتهم ، مثل الشطح والسكر وما أشبه ذلك ، وهي حالات لا يرى الصوفية بها بأسا بل يعذرون أصحابها ويحملون ما يصدر منهم على أحسن المحامل وأبعدها عن الملامة والمخالفة للشرع .

ولسنا الآن بصدد تحقيق القول في تلك الأحوال والظواهر وهل أصحابها معذرون أم لا وإنما نكتفي فقط بالتنبيه إلى أن مكمن الخطورة في تلك الأحوال يتجلى في أن الرجل من الصوفية قد

---

[١] - ابن عربي : الفتوحات المكية ١ / ١٥٠ ، وقد كرر هذا الكلام في موضع آخر من الفتوحات ٢ / ٣٧٦ وانظر أيضا العجلوني كشف الخفاء ١ / ٩ .

[٢] - رواه أحمد (١١٢٤٦) وابن حبان (٨١٧) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٠٨) وشعيب الأرنؤوط في تحقيقه لابن حبان (٨١٧)

[٣] - الشعراني : الطبقات الكبرى ١ / ٣٨٨ .

[٤] - انظر ابن حزم : الفصل ٢ / ٢٢١ ، و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١ /٩ .

يتفوه أثناءها بعبارات في غاية الخطورة ، تتضمن حشوا صريحا من قبيل الحلول أو الاتحاد ، أو المبالغات الشديدة التي لا يقبلها عقل أو نقل ، كما سنشير إلى نماذج من هذا القبيل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

هـ- ويبقى عامل أخير يضاف لما سبق كله وهو عدم تميز الصوفية بمذهب عقدي معين ينفردون به عمن سواهم من الطوائف الأخرى ، وثمة اختلاف بين مؤرخي الفرق: هل يعدونهم طائفة مستقلة، أم يدرجونهم في عداد أهل السنة –بالمعنى الأعم–[1]، ولا شك أن استقراء أحوال الصوفية يدل على عدم تميزهم باتجاه خاص في الجانب العقدي، وليس من اليسير أن نعثر في كتبهم على أصول للاعتقاد تجمعهم، وتجعلهم ينفردون بها عن سائر المذاهب، وليس في كتب القوم كبير اهتمام بشرح عقائد ولا عرض الأصول؛ إنما التركيز على المقامات والأحوال وطرائق السلوك ، ويضاف لذلك أن تجربة التصوف الذاتية تجعل من المتعذر جمعهم في وحدة فكرية، تؤلف بين أفرادها مبادئ وأصولًا محددة والمطالع لما كتبه القشيري والكلاباذي عن عقائد القوم لا يجد فيها رأيًا مستقلًّا ينفردون به عن غيرهم، وحتى عندما عرض بعض الصوفية لمشكلات علم الكلام ومسائله، فقد أخذوا بشيء مما قال به السلف، أو المعتزلة، أو الأشاعرة، وكان منهم مَن انتمى إلى هؤلاء أو أولئك، إذا ما استثنينا أصحاب التصوف الفلسفي[2].

والنتيجة المترتبة على عدم تميز الصوفية بمذهب عقدي خاص هي وجود صوفية بين سائر الاتجاهات الكلامية المختلفة ، فهناك صوفية أشاعرة – وهذا الغالب– وصوفية اثنا عشرية ، وصوفية إسماعيلية باطنية ، وصوفية مشبهة ، وما دامت ظاهرة الحشو موجودة لدى كل تلك الاتجاهات فمن المؤكد تسربها إلي الصوفية أيضا

وإذا كانت العوامل السابقة قد أسهمت بصورة ما في ظهور الحشو لدى الصوفية فينبغي أن نشير أيضا إلى أن اتجاه الحشو لديهم لم يأخذ صورة واحدة كما هو الحال عند بعض الفرق الأخرى وإنما يمكننا أن نرصد ثلاثة أمور ظهرت لدى الصوفية وهي تندرج كلها في مفهوم الحشو الذي قررناه في صدر هذا البحث .

---

[1] – انظر: د. النشار، مقدمة تحقيق كتاب "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" للرازي ص١.

[2] – انظر: د.إبراهيم مدكور في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه٢/١٣٣، ١٣٤، ود. أحمد محمود صبحي الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ص٢٢٠–٢٢٥، وانظر بحثنا الاتجاه السلفي بمصر في العصر الحديث وموقفه من التصوف ص ٦٥ .

١ – القول بالحلول والإتحاد ، أو بوحدة الوجود .

ولا شك أن القول بهذه الأمور يندرج قطعا في مفهوم الحشو ، لأنه يتضمن تشبيها وتجسيما ووصفا للخالق سبحانه بصفات المخلوق الذي اتحد به أو حل فيه أو كان هو الخالق – سبحانه وتعلى – وجودا واحدا ، وقد نبه الجويني في كتابه الشامل إلى أن القول بالحلول مندرج في القول بالتشبيه[١] .

وإذا كنا لا نتردد في الحكم بالحشو على من قال إن صفات الخالق مشابهة لصفات المخلوق مع اعتقاده التمايز التام بين الذاتين ، فما بالنا بمن نفي الاثنينية وقال إن الرب والعبد شيء واحد ، ولا فرق بين الذاتين بكل ما يترتب على ذلك من وصف الرب سبحانه بصفات المخلوق المحدثة ، وقد صرح ابن عربي بشيء من ذلك حيث قال " ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص وبصفات الذم ، ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها وكلها حق له ، كما هي صفات المحدثات حق للحق "[٢] .

ومن المعروف أن القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ليس مذهبا جديدا ابتدعته الصوفية وإنما كان من الأفكار المعروفة لدى العديد من الثقافات والفلسفات القديمة مثل اليونانية والهندية والمسيحية والغنوصية ، وقد أشار إلى هذا الأمر عدد من مؤرخي الفرق القدامي كالبيروني[٣] والكثير من الدارسين المحدثين[٤] ، لكن رغم وجود جذور قديمة لهذا القول فيبقى أن مذهب الصوفية يعد من أكثر المذاهب التي خرج من بينها أناس يتبنون هذا الاعتقاد المنحرف والمغرق في الضلال ، وقد عد فخر الدين الرازي من أقسام الصوفية قسما سماه بالحلولية ووصفهم بأنهم

---

١ – انظر الجويني : الشامل ص ٢٨٨ .

٢ – ابن عربي : فصوص الحكم ص ٨٠ ، ٨١ .

٣ – انظر البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ١ / ٢٥ .

٤ – انظر عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف ص ٤١ ، ود. عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٨ ، ٣٠ ، والمنوفي : جمهرة الأولياء ١ / ٢٩٢ ، ود. أحمد محمود صبحي : التصوف إيجابياته وسلبياته ص ٥٣ ود. فيصل عون : التصوف الإسلامي الطريق والرجال ص ٦٣ ، وإدريس محمود : مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١ / ١٧٧– ١٨٥ ، وسارة بنت عبد المحسن : نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام ص ٣١٥ ، وود.أحمد بن عبد العزيز القصير : عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية ص ٦٥ .

" يرون في أنفسهم أحوالا عجيبة وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد فيدعون دعاوى عظيمة"[١]

ويطول بنا المقام إذا حاولنا تتبع نصوص الصوفية المصرحة بالحلول والاتحاد أو وحدة الوجود ، ولذا سوف نكتفي فقط ببعض النقول ، ومنها قول أبي يزيد البسطامي " سبحاني سبحاني ما أعظم شأني"[٢] وقوله " ما في الجبة إلا الله "[٣] وقول الحلاج " يا من هو أنا وأنا هو لا فرق بين أنيتي وهويتك إلا الحدث والقدم "[٤] وقال أيضا " قيامي بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقي لاهوتية ، وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها ، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماسة لها "[٥]

ومن شعر الحلاج المصرح بذلك قوله[٦] :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

وأصرح من ذلك قوله[٧]

أنا أنت بلا شك   فسبحانك سبحاني
وتوحيدك توحيدي   وعصيانك عصياني
وإسخاطك إسخاطي   وغفرانك غفراني
ولم أجلد يا رب   إذا قيل هو الزاني

---

[١] – الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٣ .
[٢] – انظر الطوسي : اللمع ص ٤٧٢ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ٢ / ٤٦١ ، وعبد الرحمن بدوي : شطحات الصوفية ص ٢٩ .
[٣] – انظر ابن تيمية : الجواب الصحيح ٤ / ٢٤١ ، مجموع الفتاوى ٢ / ٤٦١ ، وابن القيم : مدارج السالكين ١ / ١٥٥ ، وطريق الهجرتين ص ٤٥ .
[٤] – الحلاج : الأعمال الكاملة ص ٢٤٩ .
[٥] – المصدر السابق ص ٢٤٦ .
[٦] – المصدر السابق ٣٣٠ .
[٧] – المصدر السابق ص ٣٢٧ .

وذهب ابن عربي إلى أن موسى عليه السلام عتب على أخيه هارون لما أنكر على بني إسرائيل عبادتهم العجل لعلمه أن الله قد قضى ألا يعبد إلا إياه وهم بعبادتهم العجل ما عبدوا في الحقيقة إلا الله لأن " " العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء "[١] ويقول أيضا " فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها "[٢] وفي فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية من كتابه فصوص الحكم قال " ومن أسمائه الحسنى العلي على من وما ثم إلا هو ، فهو العلي لذاته ، أو عن ماذا وما هو إلا هو ، فعلوه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست إلا هو ....فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن في حال ظهوره وما ثم من يراه غيره وما ثم من يبطن عنه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من المحدثات "[٣]

وبعد أن ذكرنا النصوص السابقة والتي تؤكد تبني نفر من الصوفية لهذا المذهب المنحرف فمن المهم أن نؤكد على أنه من الصعب أن يجزم أحد بأن هذا القول يمثل حقيقة مذهب الصوفية جميعا في القديم والحديث ، وأنه لا يوجد صوفي إلا وهو متبن لهذا القول وإن تفاوت بعضهم في إظهاره أو كتمانه كما ذهب إلى ذلك العديد من الباحثين المعاصرين[٤] ، ولابن تيمية وابن القيم[٥] نصوص عديدة في تبرئة مشايخ الصوفية الكبار من هذا المذهب ومن ذلك قول ابن تيمية " وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب وأبعدهم عنه وأعظمهم نكيرا عليه وعلى أهله ، وللشيوخ المشهورين بالخير .... من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية مالا يتسع هذا الموضع لعشره "[٦] .

أما نصوص الصوفية أنفسهم فنكتفي بذكر نص واضح لواحد من كبار المصنفين في التصوف وهو السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع ، والذي عقد بابا بعنوان " ذكر غلط الحلولية وأقاويلهم " قال فيه " بلغني أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى ذكره اصطفى أجساما حل فيها

---

[١] – ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٩٢ .

[٢] – ابن عربي : الفتوحات المكية ٢ / ٤٦٠ .

[٣] – ابن عربي : فصوص الحكم ص ٧٦ ، ٧٧ .

[٤] – من أبرز من ذهب إلى ذلك الشيخ حامد الفقي وعبد الرحمن الوكيل وانظر أيضا بعض الدراسات الحديثة التي عرضت لذلك مثل الكشف عن حقيقة التصوف لأول مرة في التاريخ لمحمود عبد الرؤوف القاسم ، وعقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية لأحمد بن عبد العزيز القصير .

[٥] – انظر ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ١٣٨ .

[٦]– ابن تيمية : درء التعارض ٢ / ٣٢٧

بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية "[1] وبعد أن بين الطوسي خطأ أصحاب هذه المقالة وضلالهم حكم عليهم بحكم في غاية الوضوح والحسم فقال " فمن صح عنه شيء من هذه المقالات فهو ضال بإجماع الأمة كافر يلزمه الكفر فيما أشار إليه "[2]

<u>٢ – القول بالتشبيه والتجسيم</u>

وقد ظهر القول بالتشبيه والتجسيم لدى نفر من الصوفية كما ظهر لدى طوائف أخرى ، ومن أشهر رجال الصوفية الذين نسبهم المؤلفون في الفرق إلى القول بالتجسيم مضر وكهمس وبعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، ومن الأقوال الشنيعة التي نسبت إليهم جواز رؤية الله في الدنيا ، وجواز مصافحته وملامسته ، ومزاورته إياهم ، وقال بعضهم إن المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا أرادوا ذلك ، وحكى عن بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد أنهم كانوا يقولون إن الله سبحانه يرى على قدر الأعمال فمن كان عمله أفضل رآه أحسن[3] .

ومن الصوفية أيضا – كما يقول المقدسي – من يزعم أنه ربما يلقى ربه في بعض الطرق ويعانقه ويقبله[4] ، ومنهم رجل يسمى بأبي حلمان الدمشقي الصوفي[5] وكان أصله من فارس ومنشؤه حلب وأظهر بدعته بدمشق فنسب لذلك إليها وتسمى طائفته بالحلمانية ، والحلماني هذا كان يقول بحلول الإله في الأشخاص الحسنة ، وكان مع أصحابه إذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها يوهمون أن الإله قد حل فيها ، كما كان يقول بالإباحة ويدعي أن من عرف الإله على الوصف الذي يعتقده هو زال عنه الحظر والتحريم واستباح كل ما يستلذه ويشتهيه ، وقد ناظر عبد القاهر البغدادي بعض هؤلاء الحلمانية ورد عليهم[6] .

---

[1] – الطوسي : اللمع ص ٥٤١ .

[2] – المصدر السابق ص ٥٤١ .

[3] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٢١٤ ، ٢٨٨ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٥ ، وابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ٣ / ١٣٧ ،وابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية ١ / ٤٠٢، ود. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ١ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

[4] – المقدسي : البدء والتاريخ ٥ / ١٤١ .

[5] – وقد نعته الطوسي في اللمع ص ٣٦٢ بأبي حلمان الصوفي ، ورجح د. النشار في نشأة الفكر ١ / ٢٩٣ بأنه هو نفسه أبو حلمان الدمشقي .

[6] – انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤٥ ، والإسفراييني : التبصير في الدين ص ١٣٢ ، و ود. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ١ / ٢٩٣ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ص ٢٩١ .

وممن عزي إليهم القول بالتشبيه أيضا طائفة السالمية المنتسبين لأبي عبد الله محمد بن سالم (ت٢٩٧هـ)، وابنه أبي الحسن أحمد (ت٣٥٠هـ) ومن أشهر رجالهم أبو طالب المكي الصوفي المعروف ، وثمة اختلاف في تقويم هذه الفرقة وهل هم مجسمة وحلولية فعلا ، أم أنهم قريبون جدا من الحنابلة وإن كان لديهم شيء من البدع [١] .

ولسنا الآن في معرض تحقيق القول حول هذه الطائفة لكننا نشير إلى بعض الأقوال الخطيرة التي نسبها إليهم غير واحد من أهل العلم ، ومنهم عبد القادر الجيلاني الذي عقد فصلا مستقلا من كتابه الغنية لذكر أقوالهم ووصفهم بالفرقة الضالة[٢] ، كما وصفهم ابن تيمية بأنهم حلولية في الذات والصفات[٣] .

ومن الآراء التي نسبها إليهم الجيلاني وابن الجوزي وغيرهم القول بأن الله يرى يوم القيامة في صورة آدمي محمدي ، وأنه عز وجل يتجلى لسائر الخلق يوم القيامة من الجن والإنس والملائكة أجمع لكل واحد في معناه ، فيراه الآدمي آدميا والجني جنيا ، كما زعموا أن الله تعالى يقرأ على لسان كل قارئ للقرآن ، وأنهم إذا سمعوا القرآن من قارئ فإنما يسمعونه من الله.[٤]

وإضافة لهؤلاء النفر المتهمين بتبني القول بالتجسيم صراحة فيمكننا أن ندرج في عداد القول بالتجسيم والتشبيه لدى الصوفية أمرين آخرين وهما :-

الأول : تشبيه المخلوق بالخالق بأن ينسب إليه شيء مما يختص به الخالق سبحانه وتعالى من الأفعال والحقوق والصفات ، مثل إحياء الموتى وإنزال المطر والعلم بالمغيبات وما أشبه ذلك من أمور ، ومن الملاحظ أن جل المتكلمين قد انشغلوا بالرد على أصحاب النوع الأول من التشبيه وهو تشبيه الخالق بالمخلوق ولم يهتموا كثيرا بالنوع الثاني[٥] .

---

[١] – انظر ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص ٣٦٦ ، و ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٦٦ ، و درء التعارض ٥ / ٣٥٣ ، ومجموع الفتاوى ٥ / ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٦ / ١٠ ، ٥٦ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

[٢] – انظر الجيلاني : الغنية ١ / ١٣٢ ، ١٣٣ .

[٣] – انظر ابن تيمية : درء التعارض ٥ / ٣٥٣ ، ومجموع الفتاوى ٦ / ٣١٠ .

[٤] – انظر الجيلاني : الغنية ١ / ١٣٢ ، ١٣٣ ، وابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ١٠٤ ، ود. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ود. السنهوتي : دراسات نقدية ص ٢٩١ .

[٥] – انظر ابن القيم إغاثة اللهفان ٢ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ود.جابر إدريس : مقالة التشبيه ١ / ١٦٤.

وثمة نماذج كثيرة في كتب الصوفية – ولا سيما كتب المناقب والتراجم – لهذا النوع من الغلو في الأولياء والصالحين ، ووصفهم بأوصاف وأفعال لا يستحق أن يوصف بها سوى الخالق سبحانه وتعالى من قبيل التصرف في الكون وقلب الأعيان ، والعلم بالمغيبات ، وتدبير شأن المخلوقات وغير ذلك الكثير .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك وصف الشعراني للشيخ شمس الدين الحنفي بأنه " أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود ، وصرفه في الكون ، ومكنه في الأحوال ، وأنطقه بالمغيبات ، وخرق له العوائد وقلب له الأعيان ، وأظهر على يديه العجائب ، وأجرى على لسانه الفوائد "[1]

ونقل صاحب كتاب الإبريز عن شيخه الدباغ أنه قال له " إني أرى السماوات السبع والأرضين السبع داخلة في وسط ذاتي وكذا ما فوق العرش من السبعين حجابا ، وفي كل حجاب سبعون ألف عالم ، وبين كل حجاب وحجاب سبعون ألف عالم ، وكل ذلك معمور بالملائكة الكرام ، وكذا ما فوق الحجب السبعين من عالم الرقا فكل هؤلاء المخلوقات لا يقع في فكرهم شيء فضلا عن جوارحهم إلا بإذن رجل – يعني الدباغ – رحمه الله تعالى "[2]

ولعل السر وراء صدور هذا الغلو الشديد الذي يتجاوز كل حد معقول هو أن الدباغ وغيره يتصور نفسه القطب الأعظم ، ومن خصائص القطب عنده أن نسبته إلى الوجود كنسبة الروح للجسد ، فلو زالت روحانيته من الوجود لانعدم الوجود كله كما " أن القطب في كل عصر له وجهة إلى كل ذرة من الموجودات ، يمدها ويقومها ذرة ذرة ، فما من ساجد سجد لله تعالى في الوجود أو راكع ركع لله أو قائم قام لله أو متحرك تحرك لله تعالى أو ذاكر ذكر الله تعالى بأي ذكر في جميع الوجود إلا والقطب في ذلك هو المقيم له ، فبه سبح المسبح ، وبه عبد العابد ، وبه سجد الساجد "[3]

ومن الأفكار الخطيرة التي تأخذ طابعا أسطوريا ، وقد تبناها طوائف من الصوفية فكرة الديوان القطبي ، وهو تجمع أو مجلس للأقطاب والغوث والأوتاد وسائر الأولياء ، يتداولون فيه أمر

---

[1] – الشعراني : الطبقات الكبرى ١ / ٤٠٦ .

[2] – السلجماسي : الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ ص ٣٧٣ .

[3] – جواهر المعاني ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ نقلا عن د. محمد لوح : تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١ / ١٧٢

العالم وما يحدث فيه ويدبرون شئونه جميعا ، وكما يذكر المستشرق نيكلسون فإن " للأولياء حكومة باطن يرون أن عليها يتوقف نظام العالم ، ورأس هذه الحكومة الأعلى يسمى القطب ، وهو أرفع صوفية عصره ، وإليه رئاسة الاجتماعات التي يعقدها في انتظام مجلس شوراه الموقر ، وأعضاء هذا المجلس لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان ، وإنما يأتون من أرجاء الأرض في لمحة طرف "[١]

وللأسف الشديد فإن كلام نيكلسون الآنف الذكر ليس من قبيل دس المستشرقين أو افترائهم على تراثنا الإسلامي ، وإنما هو تعبير حقيقي عما تحفل به بعض الكتب الصوفية من أخبار أسطورية عديدة حول هذا الديوان وطبيعته وأعضائه ومكانه ومهامه[٢] ، ولعل أخطر جزئية تتعلق بهذا الديوان هي طبيعة الدور المنوط به والذي يكاد أن يشمل أمور الكون جميعا وشئون الخلق قاطبة ، إذ إن أهل الديوان " لهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية وحتى في الحجب السبعين ، وحتى في عالم الرقا وهو ما فوق الحجب السبعين ، فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهجس به ضمائرهم فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف رضي الله عنهم أجمعين ، وإذا كان هذا في عالم الرقا الذي هو فوق الحجب السبعين التي هي فوق العرش فما ظنك بغيره من العوالم "[٣]

وليت شعري إذا كان أهل الديوان ينظرون في كل هذه الأمور ويتداولون بشأنها فماذا بقي للخالق ومالك الكون ومدبر أموره سبحانه وتعالى ، ثم لماذا لم يتدخل أهل ذلك الديوان المزعوم لانتشال المسلمين من وهدتهم ، ونصرة المظلومين منهم وإرجاع أرضهم المغتصبة لهم !!!!

وأما **الأمر الثاني** الذي يمكن إدراجه في عداد القول بالتشبيه فهو ما ورد في بعض كتب الصوفية من شطحات وأقوال وروايات منسوبة لنفر منهم ، وتتضمن وصفا للرب سبحانه بصفات لا تليق بجلاله وكماله ، أو تزعم أن كلاما جرى بين العبد والرب ، أو وصف للكرسي والعرش والحجاب دون وجود مستند صحيح يدل على ذلك ، ومن نماذج هذا القبيل قول الحلاج " حمدا

---

[١] – نيكلسون : الصوفية في الإسلام ص ١٢٠ ، ترجمة نور الدين شريبة.

[٢] – وانظر في الكلام حول هذا الديوان تفصيلا كتاب السلجماسي : الأبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ ص ٢٧٨ ، ومن كتابات منتقدي الصوفية انظر عبد الرحمن الوكيل : هذه هي الصوفية ص ١٣١ ، وعبد الرحمن عبد الخالق : الفكر الصوفي ص ٢٦٩ ، ود. محمد أحمد لوح : تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١ / ١٢٥ .

[٣] – السلجماسي : الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ ص ٢٨٨ .

لله الذي يتجلى على رأس إبرة لمن يشاء ، ويستتر في السماوات والأرض عمن يشاء "[1] و حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال " رفعني مرة ، فأقامني بين يديه ، وقال لي : يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك ، فقلت : زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك ، حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا "[2]

وحكى الشعراني عن إبراهيم الدسوقي أنه قال " أنا في السماء شاهدت ربي ، وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار غلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها من زارني أسكنته جنة الفردوس ، ... وما كان ولي متصلا بالله تعالى إلا ، وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه ، ... وإن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي ، فخلعت عليهم بيدي ، وقال : لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا إبراهيم أنت نقيب عليهم ... وقال : لي يا إبراهيم سر إلى مالك ، وقل : له يغلق النيران . وسر إلى رضوان ، وقل له يفتح الجنان "[3]

ومن الواضح أن الأوصاف المذكورة في النصوص السابقة لا تخلو من تشبيه أو وصف لله بما لا يليق به ، ولست أدري كيف يزعم هؤلاء النفر من الصوفية أنهم رأوا ربهم في الدنيا بعين البصر ، مع أن كليم الرحمن موسى لم يستطع ذلك ، وخر صعقا لما تجلى ربه للجبل كما قال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(سورة الأعراف : ١٤٣)

كذلك لست أفهم كيف يزعم الواحد من هؤلاء مخاطبة الله مباشرة بدون واسطة أو حجاب مع أن الله تعالى يقول في محكم التنزيل (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)(سورة الشورى : ٥١)

٣ – الأحاديث الموضوعة

---

[1] – الحلاج : الأعمال الكاملة ص ٢٣٣ .

[2] – الطوسي اللمع ص ٤٦١ .

[3] – الشعراني : الطبقات الكبرى ١ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ولا شك أن المطالع لمصنفات الصوفية المختلفة يجدها قد امتلأت بركام هائل من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويرجع ذلك لعدد من الأسباب منها انشغالهم بالعبادة عن العلم ، واعتقاد بعضهم أن العلوم الشرعية ومنها علم الحديث يصرف السالك عن طريق الله ، وقلة عنايتهم بعلم الحديث ، وشيوع فكرة التصحيح والتضعيف بالكشف التي أشرنا إليها آنفا والتي تنفي أية حاجة لتطبيق قواعد المصطلح وإنما التعويل على ما يمليه الذوق تصحيحا وتضعيفا .

وقد نقل الذهبي عن بعض الصوفية حكاية تشهد لهذا الذي قررناه حيث ذكر في ترجمة الخلدي (ت ٣٤٨) وهو أحد تلامذة الجنيد أنه قال " مضيت إلى عباس الدوري، وأنا حدث، فكتبت عنه مجلسا، وخرجت، فلقيني صوفي، فقال: أيش هذا ؟ فأريته، فقال: ويحك، تدع علم الخرق، وتأخذ علم الورق ! ثم خرق الاوراق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى عباس ، ووقفت بعرفة ستا وخمسين وقفة " وقد علق الذهبي على ذلك بقوله " قلت: ما ذا إلا صوفي جاهل يمزق الاحاديث النبوية، ويحض على أمر مجهول، فما أحوجه إلى العلم "[١]

وإذا اتخذنا من حجة الإسلام أبي حامد الغزالي نموذجا في هذا الباب ، فسوف نجد أنه وإن كان يعد من أبرز الصوفية المبرزين في العلوم الشرعية المختلفة كالفقه والأصول والكلام إلا أنه كان مع ذلك قليل البضاعة في علم الحديث كما اعترف هو نفسه بذلك فقال " وبضاعتي في علم الحديث مزجاة "[٢] وقال عنه الذهبي " وكان مزجي البضاعة من الآثار ، على سعة علومه ، وجلالة قدره ، وعظمته "[٣] ورغم دفاع السبكي المستميت عن الغزالي فقد اعترف بذلك فقال " فالغزالي معروف بأنه لم تكن له في الحديث يد باسطة "[٤]

ولعل كتاب الغزالي إحياء علوم الدين يعد نموذجا واضحا لمصنفات الصوفية المكتظة بالأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها[٥] ، وكما يقول ابن الجوزي " فإن في كتاب الإحياء آفات لا يعلمها إلا العلماء وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة وقد جعلها مرفوعة وإنما

---

[١] – الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥ / ٥٥٩ .

[٢] – الغزالي : قانون التأويل ص ٣٠ ، وقد نقل ابن تيمية هذا الوصف في العديد من كتبه فانظر درء التعارض ١ / ٥ ، ومجموع الفتاوى ٣٥ / ١٧٦ ، والرد على المنطقيين ٤٨٣ .

[٣] – الذهبي : تاريخ الإسلام : ٣٥ / ١٢٨ .

[٤] – السبكي : طبقات الشافعية ٦ / ٢٤٩ .

[٥] – وقد خرج ابن عساكر أحاديث الإحياء في كتابه المغني عن حمل الأسفار ، وجمع السبكي في كتابه طبقات الشافعي ٦ / ٢٨٧ ما في الإحياء من الأحاديث التي لا أصل لها فاستغرقت عشرات الصفحات .

نقلها كما اقتراها لا أنه افتراها ، ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع والاغترار بلفظ مصنوع "[1] وقد بالغ البعض في نقد ما احتواه الإحياء من أحاديث لا تصح حتى قال أبو بكر الطرطوشي " شحن أبو حامد " الإحياء " بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أعلم كتابا على بسيط الارض أكثر كذبا منه "٢

لكن من المهم أن نؤكد على أن الغزالي لم يكن ممن يتعمدون إيراد هذه الأحاديث الموضوعة ، وإنما أوتي من قصر باعه في علم الحديث ، وقد أقر بذلك وبرأ الغزالي من تهمة تعمد وضع تلك الأحاديث شخصيتان من أبرز من نقدوا الغزالي وهما ابن الجوزي٣ وابن تيمية٤ .

ومن نماذج الأحاديث ذكرها الغزالي في الإحياء وهي إما موضوعة أو ضعيفة أو لا أصل لها حديث " إن في جهنم سبعين ألف واد ، في كل واد سبعين ألف شعب ، في كل شعب سبعون ألف ثعبان ، وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله "[5] وحديث " إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء ، وأربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا "[6] ، وحديث " إن الله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول اللهم كما ألفت بين الثلج و النار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين "[7] ، وحديث " إن الأكل على الشبع يورث البرص "[8] .

ومن كتب الغزالي المملوءة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أيضا كتابه " مكاشفة القلوب " والغريب حقا أنه يسوق في هذا الكتب بعض الأمثال ناسبا إياها إلى النبي صلى الله عليه وسلم على أنها أحاديث ومن ذلك حديث " عز من قنع وذل من طمع "[9] وحديث " القناعة كنز لا يفنى

---

[1] – ابن قدامة المقدسي : مختصر منهاج القاصدين ص ١١ .

[2] – الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٩ / ٣٣٤) والسبكي : طبقات الشافعية ٦ / ٢٤٣ .

[3] – ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ١٧٠ .

[4] – ابن تيمية : درء التعارض ٧ / ١٤٩ .

[5] - الغزالي : إحياء علوم الدين ٤ / ٥٣١

[6] - المصدر السابق ٤ / ٥٤١ .

[7] - المصدر السابق ٢ / ١٦٠ .

[8] - المصدر السابق ٣ / ٨٢ .

[9] – الغزالي : مكاشفة القلوب ص ٢١٢ .

"[1] ، ولعل من المهم أن نشير إلى أن كتب الغزالي كالإحياء ومكاشفة القلوب وغيرها ليست وحدها المكتظة بالأحاديث الموضوعة والضعبفة ، وإنما يعد هذا الأمر سمة مطردة في جل مصنفات الصوفية ، ليس بوسع أحد أن ينكرها[2] .

وينطبق الحكم السابق على أبرز كتب التصوف كمصنفات أبي عبد الرحمن السلمي والرسالة القشيرية ، وقوت القلوب لأبي طالب المكي[3] ،واللمع للطوسي[4] ، وكشف المحجوب للهجويري[5] ، والمصباح في مكاشفة بعث الأرواح لروزبهان البقلي[6]، فضلا عن مصنفات المتأخرين ، ولست أدري كيف يورد بعض أصحاب هذه الكتب أحاديث ظاهرة الوضع والكذب ويجزمون بنسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم مثل حديث " من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين "[7] وحديث " لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يظن الناس أنه مجنون "[8] وحديث " كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف "[9] وحديث " المؤمن خير من الملائكة "[10] وعزا الجيلاني إلى السالمية قولهم بخبر موضوع ينص على أن موسى عليه السلام لما كلم ربه أعجب بنفسه فأوحى الله إليه يا موسى أتعجبك نفسك ، مد عينيك فمد موسى عينيه فنظر فإذا قدامه مائة طور على كل طور موسى [11] .

وأما كتب أصحاب التصوف الفلسفي – على قلة ما فيها من الأحاديث باستثناء الفتوحات المكية لابن عربي – فهي لا تخلو من الموضوعات وما لا أصل له ونكتفي هنا بالتمثيل ببعض الأحاديث الموضوعة التي ذكرها ابن عربي ، ومنها حديث " أول ما خلق الله العقل وهو الحق

---

[1] – المصدر السابق ص ٢١٢ .

[2] - انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ٦٨٠ .

[3] – المصدر السابق ١٠ / ٥٥١ ، ١١ / ٦٨٠ ، ١٨ / ٧٢ .

[4] – انظر الطوسي : اللمع ص ٤٢١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٧٨ .

[5] – انظر الهجويري : كشف المحجوب ١ / ٢٢٧ .

[6] – انظر روزبهان البقلي : المصباح في مكاشفة بعث الأرواح ص ٩ ، ١٨ ، ١٩ .

[7] – وهذا الحديث ظاهر الوضع ذكره الهجويري في : كشف المحجوب ١ / ٢٢٧ مع أن مصطلح التصوف لم يكن له وجود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ظهر في فترة لاحقة .

[8] – الطوسي : اللمع ص ٤٢١ .

[9] – روزبهان البقلي : المصباح في مكاشفة بعث الأرواح ص ٩

[10] – المصدر السابق ص ١٩ .

[11] – الجيلاني : الغنية ١ / ١٣٣ .

الذي خلق به السموات والأرض "[1] وحديث " رأيت ربي في صورة شاب "[2] ، وحديث " الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا "[3] وحديث " أول ما خلق الله روحي "[4] وحديث " أول ما خلق الله نوري "[5]

٤ – الخرافات والشطحات

ولا شك أن المطالع لكثير من كتب التصوف يجدها حافلة بما لا يمكن تصديقه من قصص وحكايات الصالحين وكراماتهم الخارقة للعادات ، وكما يقول ابن تيمية فإن " في كتب التصوف من الحكايات المكذوبة ما الله به عليم "[6]

ويظهر هذا الأمر بوضوح في كتب الصوفية المتأخرين التي ألفوها في الطبقات ، والمناقب وفي تراجم أئمة الصوفية ومشايخهم ، حيث تميل دائما إلى الغلو الظاهر ،والمبالغة في صفات الممدوح ، وإسباغ الكثير من الصفات غير المعتادة عليه ، حتى إنه في بعض الأحيان يكاد يتجاوز طور البشرية إلى طور آخر .

ولا يتسع المقام هنا لتتبع تلك الظاهرة في كتب الصوفية عبر العصور المختلفة ، لذا سوف نكتفي بالإشارة إلى واحد من أكثر كتب طبقات الصوفية إثارة للجدل وهو كتاب الطبقات الكبرى للشعراني ، وقد تضمن الكتاب المذكور كما هائلا من الخرافات والأساطير ، والتي يباين العديد منها حدود العقل ويتعارض مع الشرع ، كما لا يخلو من خدش للحياء وانتهاك لقواعد الأدب والذوق والأخلاق ، مما حدا بنفر من الصوفية إلى القول بأن تلك الأمور دست على الكتاب من مبغضي الشعراني ، بينما نفى منتقدو الصوفية ذلك واتخذوا من تلك الخرافات وسيلة ناجعة لذم الصوفية والطعن فيهم .

---

[1] – ابن عربي : الفتوحات المكية ٢ / ٩٤ .

[2] ـ المصدر السابق ١ / ١٤٤ .

[3] ـ المصدر السابق ٤ / ٤٠٢ .

[4] – ابن عربي : شق الجيب بعلم الغيب ضمن رسائل ابن عربي ، ص ٢٨٩ تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح ، مؤسسة الانتشار العربي .

[5] – المصدر السابق ص ٢٨٩ .

[6] – ابن تيمية : المستدرك على مجموع الفتاوى ١ / ٦٥ .

ولا يعنينا الآن أن نحكم بين الفريقين لأن الإشكال الحقيقي أن كتاب الشعراني ليس الوحيد في هذا الباب ، فهناك كتابات أخرى تسير على منواله وقد أثرت في عقول الكثير من أتباع التصوف عبر عصور متتابعة ، ومن نماذج تلك الخرافات الموجودة في كتاب الشعراني ما ذكره في ترجمة الشيخ يوسف العجمي الكوراني أنه كان إذا خرج من الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد ، فكل من وقع نظره عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً ، وأضاف الشعراني بأنه ذات مرة " خرج من خلوة الأربعين ، فوقع بصره على كلب ، فانقادت إليه جميع الكلاب ، وصار الناس يهرعون إليه في قضاء حوائجهم ، فلما مرض ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون، ويظهرون الحزن عليه ، فلما مات أظهروا البكاء ، والعويل ، وألهم الله تعالى بعض الناس ، فدفنوه فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتوا ، فهذه نظرة إلى كلب فعلت ما فعلت فكيف لو وقعت على إنسان "[1]

ويطول المقام بنا إذا تتبعنا كل ما ذكره الشعراني في كتابه ، لكننا نختم بما رآه وسمعه مباشرة عن أحد مشايخه الذين عاصرهم وخالطهم ، وقد وصفه بسيدي إبراهيم بن عصيفير ، وقال إنه كان كثير الكشف ، وله وقائع مشهورة ، وكان أصله من البحر الصغير ، وظهرت له الكرامات ، وهو صغير ، ومن أطوار هذا الشيخ الغريبة أنه "كان يغلب عليه الحال فيخاصم ذباب وجهه ، وكان يتشوش من قول المؤذن الله أكبر فيرجمه ، ويقول : عليك يا كلب نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا ، وما ضبطت عليه قط كشفاً أخرم فيه ، وكان رضي الله عنه كثير الشطح ، وكان أكثر نومه في الكنيسة ، ويقول النصارى لا يسرقون النعال في الكنيسة بخلاف المسلمين ، وكان رضي الله عنه يقول : أنا ما عندي من يصوم حقيقة إلا من لا يأكل اللحم الضاني أيام الصوم كالنصارى ، وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضاني ، والدجاج أيام الصوم فصومهم عندي باطل ، ... وكان يفرش تحته في مخزنه التبن ليلا ، ونهاراً ، وقبل ذلك كان يفرش زبل الخيل ، وكان إذا مرت عليه جنازة ، وأهلها يبكون يمشي أمامها معهم ، ويقول زلابية هريسة زلابية هريسة ، وأحواله غريبة ، وكان يحبني وكنت في بركته ، وتحت نظره إلى أن مات سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة "[2]

ولا أظن أننا بحاجة إلى بيان حال تلك الخزعبلات التي تكفي حكايتها فحسب لبيان بطلانها لدى كل من عنده مسكة عقل ، وسواء ذكرها الشعراني نفسه ، أو دست عليه – كما يقول

[1] – الشعراني : الطبقات الكبرى ١ / ٣٧٤ .

[2] – المصدر السابق ١ / ٤٧٦ ، ٤٧٧

المدافعون عن التصوف – فلا شك أنها مؤشر خطير على شيوع الجهل والخرافة لدى الصوفية في تلك الأعصر المتأخرة .

ولعل مما يجدر ذكره هنا أن ما سقناه من الحكايات الأسطورية أو الخرافية التي يصعب على العقل تصديقها ليس مقصورا على كتاب الطبقات للشعراني وما أشبهه من كتب المتأخرين بل هو أمر موجود للأسف الشديد في عدد من الكتب الرئيسية عند الصوفية وبعضها لأئمة متقدمين جدا وإن كانت ليست بنفس الكم والكيف .

ويمكننا أن نضرب مثالا لذلك بما حكاه أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب عن أبي يزيد أنه قيل له " بلغت جبل قاف ؟ فقال : جبل قاف أمره قريب ، الشأن في جبل كاف ، وجبل عين وجبل صاد ، قال : وما هذا ؟ قال : هذه جبال محيطة بالأرضين السفلى ، حول كل أرض جبل بمنزلة جبل قاف محيط بهذه الدنيا ، وهو أصغرها ، وهذه أصغر الأرضين ، وقد كان أبو محمد يخبر أنه صعد جبل قاف ، ورأى سفينة نوح مطروحة فوقه ، وكان يصفه ويصفها ، وقال لله عبد بالبصرة يرفع رجله وهو قاعد فيضعها على جبل قاف ، وقد قيل : الدنيا كلها خطوة للولي ، وإنّ وليًّا لله خطا خطوة واحدة خمسمائة عام ، ورفع رجله على جبل قاف والأخرى على جانب الجبل الآخر ، فعبر الأرض كلها ، وقيل لأبي يزيد : دخلت إرم ذات العماد فقال : قد دخلت ألف مدينة لله في ملكه ، أدناها ذات العماد ، ثم عددها كلها ؛ البيت وتاويل وتاريس وجايلق وجابرس ومسك "[1]

وإضافة للخرافات والأساطير السابقة فإن هناك عددا غير قليل من العبارات الصادرة عن بعض أئمة الصوفية في حال السكر والاصطلام فيما يعرف بالشطحات[2] ، وقد عرف كل من الطوسي والجرجاني الشطح بتعريف لا يخلو من مجال للنظر والتعقب وإن كان يعطينا فكرة عامة عن الشطح فعرفه الطوسي بأنه " عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته "[3] وعرفه الجرجاني بأنه " عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب ، وهو من زلات المحققين فإنه دعوى حق يفصح بها العارف لكن

[1] – أبو طالب المكي : قوت القلوب ٢ / ١١٣ ، ١١٤ .

[2] – ويمكن الرجوع إلى نماذج عديدة من تلك الشطحات في كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي : شطحات الصوفية .

[3] – الطوسي : اللمع ص ٤٥٣ .

من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة "[1] ومن الباحثين المعاصرين عرفها د. محمد مصطفى حلمي بأنها " ألفاظ وعبارات موهمة الظاهر صدرت عن كثير من أئمة الصوفية ، وهي لما يستشكل من ظواهرها قد جعلت الناس فيها بين منكر ومحسن ومتأول "[2]

ومكمن الخطورة في تلك الشطحات هو ما تنطوي عليه من خلل عقدي خطير ، ورعونة وسوء أدب مع الله ، ومجاوزة لكل حد معقول أو منقول ، ولذا فإننا لا نجاوز المنهج العلمي إذا أدرجناها ضمن ظاهرة الحشو ، لأنها ليست أقل طعنا في الذات الإلهية من مذاهب المشبهة أو الأحاديث الموضوعة ، والقصص الإسرائيلية .

ومن نماذج ذلك قول الحلاج " لا إله إلا الله كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد ...ومن زعم أنه يوحد الله فقد أشرك "[3] وقال " ظاهر الشريعة كفر خفي وحقيقة الكفر معرفة جلية "[4] وقال أيضا لرجل " أتتشهد في الأذان قال نعم قال ألحدت من حيث وحدت في تشهدك "[5] وقال " لولا أن الله تعالى قال " لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين لكنت أبصق في النار حتى تصير ريحانا على أهلها "[6]

ويعتبر أبو يزيد البسطامي من أكثر من نسب إليه الكثير من الشطحات ، ومن نماذج ذلك قوله " أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلي ، فأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفني بين يديه فقال لي : سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت : ياسيدي ، مارأيت شيئاً أستحسنته فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدي حقّاً ، تعبدني لأجلي صدقاً "[7].

---

[1] – الجرجاني : التعريفات ص ١٦٧ ، وانظر المناوي : التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٢٩ .

[2] – د. محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ص ١٧١ .

[3] – الحلاج : الأعمال الكاملة ص ٢٢٨ ، جمع قاسم محمد عباس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

[4] – المصدر السابق ص ٢٣٣ .

[5] – المصدر السابق ص ٢٢٩ .

[6] – المصدر السابق ص ٢٣٥ .

[7] – أبو طالب المكي : قوت القلوب ٢ / ١١٤ ، ١١٥ .

كذلك حكي عنه أنه قال " تاالله إن لوائي أعظم من لواء محمد صلى الله عليه وسلم لوائي من نور تحته الجان والجن والإنس كلهم من النبيين "[1] وقال مستخفا بنار جهنم " ما النار ؟ لأستندن إليها غدا وأقول اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنها ، ما الجنة لعبة صبيان "[2]

وممن نسب إليه الشطحات أيضا الشبلي حيث نقل عنه أنه قال " لو دبت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء ولم أشعر بها أو لم أعلم بها لقلت إنه ممكور بي "[3] ونسب إليه أيضا أنه قال " إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفأوها "[4]

ونقل ابن عربي عن أبي السعود أنه قال " إن الله أعطاني التصرف منذ خمس عشرة سنة، وتركناه تظرفاً"٥ وعلق ابن عربي على كلامه هذا بقوله: "هذا لسان إدلال وأما نحن، فما تركناه تظرفاً – وهو تركه إيثارا – وإنما تركناه لكمال المعرفة "٦ وقال التلمساني " "القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا"٧.

ولا أظن أننا بحاجة للإطالة في نقد ما انطوت عليه تلك الشطحات من خلل عقدي ومصادمة لثوابت الدين وإساءة أدب – في بعض الأحيان – مع الله ورسوله ، وعجب ظاهر ، وتزكية للنفوس ، واستهانة بعذاب الله ووعيده وغير ذلك من البلايا .

ومهما حاول البعض تبرئة أصحاب تلك الشطحات والتماس الأعذار لهم ، والقول بأن تلك العبارات صدرت منهم في أحوال غير طبيعية أو مألوفة ، أقول إنه حتى لو سلمنا بعذر القائلين – مع شيء من التحفظ – فإنه لا يسعنا سوى استنكار ما قالوه ، والتأكيد على مصادمته التامة لدين الله تعالى جملة وتفصيلا .

---

[1] – عبد الرحمن بدوي : شطحات الصوفية ص ٣٠ .

[2] – المصدر السابق ص ٣١ .

[3] – عبد الرحمن بدوي : شطحات الصوفية ص ٤٣ .

[4] – الطوسي : اللمع ص ٤٩١ ، وعبد الرحمن بدوي : شطحات الصوفية ٤٣ .

[5] – ابن عربي : الفتوحات المكية ٢ / ٣٧٠ ، وفصوص الحكم ص ١٢٥ ، ومحمد داود قيصري : شرح فصوص الحكم ص ٨٠٦ .

[6] –ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٢٥ ، و محمد داود قيصري : شرح فصوص الحكم ص ٨٠٦ ، وعبد الرحمن الوكيل : هذه هي الصوفية ص ١١٨ .

[7] – انظر ابن تيمية : الصفدية ١ / ٢٤٤ ، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٤٠ ، وبغية المرتاد ٢ / ٣٢٩ ، وبيان تلبيس الجهمية ٢ / ٥٣٩ .

وفي نهاية حديثنا عن الشطح الصوفي والخرافات ، يجدر بنا الإشارة إلى جانب آخر قريب الصلة بما سبق ، وليس من العسير أن ندرجه في عداد الخرافات بمعناها العام ، ونعني بذلك الذكر بألفاظ مجهولة المعنى ، وجمل خارجة عن كل التراكيب العربية المألوفة ، وأشبه ما تكون بالطلاسم ثم الادعاء بأنها لغة سريانية ، أو ألفاظ من عالم الملكوت لا يفهمها إلا الأقطاب والأولياء الواصلون ، ويعجز أصحاب العلم الظاهر من حملة الشريعة أن يدركوا معنا أو يتذوقوا أسرارها ، قد أشرنا فيما مضى إلى أن كثيرا من أهل العلم نسبوا إلى الحشوية القوال بجواز أن يتضمن كتاب الله ما لا معنى الله ، كما أنهم يوردون نصوصا لا يفهمون معناها وإنما يؤمنون بها كما هي دون أدنى تعقل لها .

وفي اعتقادي أن هذه الأمور كلها لا تختلف بحال عما هو موجود في كتابات كثير من الصوفية المتأخرين – ولا سيما أصحاب الطرق – من أذكار وأوراد يلزمون الأتباع بها ، ويزعمون أنها بلغات أخرى غير العربية ومنها السريانية .

وثمة نماذج كثيرة في كتب الأوراد لدى الطرق المختلفة ويضيق المقام عن حصرها ، ولذا نكتفي ببعض الأمثلة ، ومنها ما جاء في أوراد الجيلانية " وأسألك الوصول بالسر الذي تدهش منه العقول ، فهو من قربه ذاهل ايتنوخ يا ملوخ باي وامن آي وامن مهباش الذي له ملك السماوات والأرض طهفلوش انقطع الرجاء إلا منك "[1]، ومن أوراد الطريقة الدسوقية " اللهم آمني من كل خوف وهم وغم وكرب كدكد كردد كردد كردد كرده كرده ده ده الله رب العزة " ومن أوراد الطريق البرهانية "احمى حميثا أطمى طميثا ..بها بها بهيا بهيا بهيات بهيات القديم الأزلي يخضع لي كل من يراني لمقفنجل يا أرض خذيهم "[2]

ولا أظن أن مثل هذا الكلام يحتاج لتعليق إذ هو أشبه بتعزيمات السحرة وطلاسم المشعوذين ولكن الإشكال الحقيقي هو كيف يطمئن إنسان عاقل لأن يذكر ربه بمثل هذه العبارات التي لا يدري هل هي مدح أم قدح ، وإيمان أم كفر ، لكن هكذا يفعل التقليد بأهله وهذه عاقبة تعطيل العقول التي وهبها الله للإنسان ، والسير الأعمى وراء المشايخ والمتبوعين دون إدراك أو تمييز .

---

[1] – انظر مجموع الأوراد الكبير المنسوب للجيلاني ص ١٠ ، نقلا عن محمود المراكبي : ظاهر الدين وباطنه ص ٦٩ ، ١٩٩٦ م .

[2] – أحمد بن عياد : المفاخر العلية في المآثر الشاذلية ص ٢٢٢ ، نقلا عن محمود المراكبي : ظاهر الدين وباطنه ص ٦٩ .

ويبدو أن غرام بعض الصوفية بالحروف وأسرارها سواء أكانت عربية أو سريانية أمر قديم في المذهب[1] وللحلاج ولع ظاهر بهذا الأمر وقد نص على أن علم القرآن كله " في الأحرف التي في أوائل السور ، وعلم الأحرف في لام الألف ، وعلم لام الألف في الألف ، وعلم الألف في النقطة ، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية في الأزل ، وعلم الأزل في المشيئة وعلم المشيئة في غيب الهو ، وغيب الهو ليس كمثله شيء "[2]

رابعا : حشوية المحدثين المفسرين.

والمقصود بهم جماعة من المنتسبين إلى علم الحديث أو التفسير اقتصروا على جانب الرواية ونقل الأسانيد ، دون أن يكون لديهم ملكة النقد والتمييز بين صحيح المرويات ومكذوبها ، وقد أوقعهم هذا الأمر في ذكر ما لا يصح بحال ، واعتناق بعض الآراء الشاذة سواء في مجال الصفات ، أو أمور الغيبيات ، وأخبار السابقين من الأمم المتقدمة .

وكما هي العادة لدى سائر الاتجاهات الحشوية ، فقد ظهر حشو هؤلاء النفر في عدد من المجالات أبرزها ما يلي :-

١- القول بالتشبيه والتجسيم .

وقد عدت كتب الفرق من بين طوائف المشبهة جماعة من أصحاب الحديث المتأثرين بالتصوف يسمون بالحشوية ، ويصرحون بالتشبيه من أمثال مضر ، وأحمد الهجيمي ، وهم يقولون إن معبودهم على صورة ذات أعضاء وأبعاض ، إما روحانية وإما جسمانية ، كما أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وزعموا أن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص والاتحاد المحض ، وحكى الكعبي عن بعضهم أنه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا ، وأن يزوروا الله سبحانه ويزورهم[3] .

---

[1] – وللمستشرقة المعروفة آنا ماري شيمل بحث بعنوان رمزية الحروف في المصادر الصوفية ، عرضت فيه لهذا الموضوع ، وهو ملحق بكتابها الأبعاد الصوفية وتاريخ الإسلام ص ٤٦٩ ، ترجمة محمد إسماعيل السيد ، ورضا حامد قطب ،منشورات الجمل ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م .

[2] – الحلاج : الأعمال الكاملة ص ١١٧ .

[3] – الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ١٠٥ .

ومع شناعة تلك الأقوال وضلالها الواضح فإن من الملاحظ أنه لا يوجد واحد من هؤلاء النفر المذكورين يعد من أئمة أهل الحديث وعلمائهم الكبار ، بل سبق أن أشرنا إلى إدراج البعض لهم ضمن مشبهة الصوفية[1] مما يشير إلى أن هذه الآراء إنما وجدت لدى أفراد من عوام المحدثين ، أو بعض المشتغلين بالرواية دون تحقيق أو تدقيق ، ولا تمثل ظاهرة عامة لدى المحدثين بحيث يقال إن التجسيم يعتبر اتجاها بارزا عندهم .

ومن إنصاف ابن تيمية رحمه الله أنه أقر بوجود من وصفهم بأنهم " طائفة ممن انتسب إلى السنة، وعظَّم السنة والشرع، وظنوا أنهم اعتصموا في هذا الباب بالكتاب والسنة ، جمعوا أحاديث وردت في الصفات، منها ما هو كذب معلوم أنه كذب، ومنها ما هو إلى الكذب أقرب، ومنها ما هو إلى الصحة أقرب، ومنها متردد ، وجعلوا تلك الأحاديث عقائد، وصنفوا مصنفات ، ومنهم من يكفر من يخالف ما دلت عليه تلك الأحاديث " وليس ثمة خلاف عنده في أن " تمثيل الله بخلقه والكذب على السلف من الأمور المنكرة، سواء سمى ذلك حشوًا أو لم يسم "[2] .

وقد وجه الاتهام بالتجسيم إلى بعض علماء الحنابلة ، ومن أبرزهم أبو يعلى الحنبلي صاحب كتاب إبطال التأويلات ، والذي أورد فيه عددا غير قليل من الأحاديث الواهية والموضوعة والتي تتضمن وصفا لله بما لا يليق بجلاله وعظمته . وقد فتح هذا الكتاب على أبي يعلى باب الاتهام والتشنيع ، حتى إن ابن العربي نسب إليه أنه " كان يقول إذا ذكر الله تعالى وما ورد من هذه الظواهر في صفاته يقول ألزموني ما شئتم فإني ألتزمه إلا اللحية والعورة "[3] لكن ابن تيمية نفي هذا الاتهام ورأى أن " ما نقله عنه أبو بكر بن العربي في العواصم كذب عليه عن مجهول لم يذكره أبو بكر وهو من الكذب عليه "[4] وإن كان مع هذا النفي لم يعف أبا يعلى وكتابه من النقد رغم أنه من الحنابلة[5] .

---

[1] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٢٨٨ .

[2] – ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٤ / ١٤٥ .

[3] – ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، تحقيق د. عمار طالبي .

[4] – ابن تيمية : درء التعارض ٥ / ٢٣٨ .

[5] – المصدر السابق ٥ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، كذلك انتقد الذهبي أبا يعلى في هذا الجانب فقال " ولم تكن له يد طولى في معرفة الحديث، فربما احتج بالواهي " انظر سير أعلام النبلاء ١٨ / ٩١

ومن المرويات المستشنعة التي أوردها أبو يعلى حديث " إن الله لما فرغ من خلقه استوى على عرشه واستلقى ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال إنها لا تصلح لبشر "[1] وحديث إن الله يتجلى لعباده في الآخرة " يضحك حتى تبدو لهواته "[2] .

لكن من المستغرب حقا أنه رغم إيراد أبي يعلي لتلك المرويات الباطلة سندا ومتنا ، فإن له كتبا في الرد على الكرامية ، والرد على السالمية والمجسمة[3] ، كما أن له نصوصا يصرح فيها بأن " صفات الله تعالى لا تشبه سائر الموصوفين بها من الخلق ولا نعتقد التشبيه فيها "[4] و ينكر على " المجسمة الذين وصفوه بالجسم ، والمشبهة الذين شبهوا صفاته بصفات خلقه "[5] بل إن ابنه ينقل عنه حكما في غاية الصرامة تجاه القائلين بالتجسيم حيث يرى أن من " اعتقد أن الله سبحانه جسم من الأجسام ، وأعطاه حقيقة الجسم من التأليف والانتقال فهو كافر لأنه غير عارف بالله عز وجل ، لأن الله سبحانه يستحيل وصفه بهذه الصفات ، وإذا لم يعرف الله سبحانه وجب أن يكون كافراً "[6]

ولعل في هذه النصوص دليلا واضحا على أن الرجل لم يكن مشبها أو مجسما صرفا ، قائلا بالمماثلة بين صفات الخالق والمخلوق ، وإنما دخل عليه الخلل من قلة العلم بفن الحديث والتمييز بين صحيح المرويات من ضعيفها ، فأورد مثل تلك الأحاديث الباطلة التي ما أظن أن أحدا يتردد في رفضها والإنكار على من رواها دون تمييز أو تحذير .

ومن الشخصيات الأخرى المنتسبة للحديث ، والتي أكثرت من رواية الموضوعات وربما تضمن بعض ما رووه تشبيها فجا أو حشوا أبو علي الأهوازي المتوفى عام (٤٤٦ هـ) والذي ألف كتابا في ذم الأشعري ، ورد عليه ابن عساكر بكتابه تبيين كذب المفتري ، وللأهوازي مصنف في الصفات اسمه كتاب البيان في شرح عقود أهل الإيمان أودعه أحاديث منكرة[7] وجمع فيه الغث

---

[1] – أبو يعلى : إبطال التأويلات ١ / ١٩٠ ولا يخفى نكارة هذا الحديث وبطلان متنه فضلا عما في سنده من وهاء .

[2] – المصدر السابق ١ / ٢١٣ .

[3] – انظر ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٢ / ٢١٠ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨ / ٩١ .

[4] – أبو يعلى : إبطال التأويلات ١ / ٤٣ .

[5] – أبو يعلى : إبطال التأويلات ١ / ٤٣ .

[6] – ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ٢ / ٢١٠

[7] – انظر ابن عساكر تاريخ دمشق ١٣ / ١٤٥ .

والسمين[1] ، ولم لو لم يجمعه – كما يقول الذهبي[2] – لكان خيرا له ، فإنه أتى فيه بموضوعات وفضائح .

ومن أشنع ما أورده الأهوازي في كتابه هذا من الأحاديث الباطلة نقلا وعقلا ، حديث " إن الله تعالى لما أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل فأجراها حتى عرقت ، ثم خلق نفسه من ذلك العرق "[3] وحديث " إذا كان يوم الجمعة ينزل الله بين الاذان والاقامة ، عليه رداء مكتوب عليه: إننى أنا الله لا إله إلا أنا، يقف في قبلة كل مؤمن مقبلا عليه، فإذا سلم الامام صعد إلى السماء " وحديث " رأيت ربى بعرفات على جمل أحمر، عليه إزار "[4]

ومن تلك الشخصيات أيضا عبد الرحمن بن مَنْدَه[5] والذي كان من أكثر الناس حديثا، لكنه روى شيئًا كثيرًا من الأحاديث الضعيفة، وكان لا يميز بين الصحيح والضعيف ، وهو في تواليفه حاطب ليل، يروي الغث والسمين، وينظم ردئ الخرز مع الدر الثمين ، وربما جمع بابًا وكل أحاديثه ضعيفة وقد وقع ما رواه من الغرائب الموضوعة إلى حسن بن عدى فبنى على ذلك عقائد باطلة، وادعى أن الله يرى في الدنيا عيانًا[6] .

وإذا انتقلنا من مجال الحديث إلى مجال التفسير ، فسوف نجد من أشهر المفسرين المنسوبين إلى التشبيه والتجسيم مقاتل بن سليمان ، والذي حكى عنه الأشعري القول بأن الله تعالى " جسم ، وأن له جمة ، وأنه على صورة الإنسان لحم ودم شعر وعظم ، له جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس وعينين ، مصمت وهو مع هذا لا يشبه غيره ولا يشبهه "[7]

---

[1] – انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٣٤ .

[2] – انظر الذهبي : ميزان الاعتدال ١ / ٥١٢ .

[3] – ابن عساكر تاريخ دمشق ١٣ / ١٤٥ .

[4] – انظر الذهبي : ميزان الاعتدال ١ / ٥١٢ ، وابن حجر : لسان الميزان ٢ / ٢٣٨ .

[5] – وليس المراد بكلامنا هذا ابن منده الحافظ والمحدث المشهور ، صاحب كتاب التوحيد وكتاب الإيمان وإنما الذي معنا هنا ولده عبد الرحمن المتوفى ٤٧٠ هـ .

[6] – انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٣٤ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨ / ٣٥٤ .

[7] – الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ١٥٣ .

وثمة اختلاف بين أهل العلم – يحتاج إلى دراسة مستقلة – في صحة نسبة القول بالتشبيه إلى مقاتل[١] فهناك من نفى عنه ذلك مثل الملطي[٢] وهناك من أثبت صحة الاتهام كأبي حنيفة[٣] والأشعري[٤] ، والجويني[٥] ، والآمدي[٦] ، وغيرهم ، وهناك من توقف في المسألة مثل ابن تيمية الذي قال " وأما مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله "[٧]

وفي ظني أن كثرة ما نسب للرجل من آراء منكرة وشاذة ، وتصريح أئمة كبار في عصور مختلفة بذلك ، يدل على وجود قدر كبير من الخلل والغلو في معتقداته وآرائه ، لا سيما في باب الصفات .

<u>٢- رواية الأحاديث الموضوعة.</u>

ومن المعروف أن الأحاديث الموضوعة لم تقتصر على جانب دون آخر من جوانب الدين بل امتدت إلى كافة المجالات ، وإذا كان خطرها وضررها في فضائل الأعمال ومناقب الأشخاص محتملا بعض الشيء ، فلا شك أن ضررها في مجال الاعتقاد وأصول الدين يترتب عليه الكثير من الآفات والعواقب الوخيمة .

وثمة نماذج كثيرة من الأحاديث الموضوعة في مجال العقيدة ، ويهمنا منها ما كان متعلقا بصفات الله تعالى ، ولعل من أشنع تلك النماذج حديث عرق الخيل الذي تقدمت الإشارة إليه ونصه أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل – فيما نسبوه إليه كذبا – " مم ربنا ؟ فقال : من

---

[١] – انظر د. جابر إدريس : مقالة التشبيه ١ / ٣٢٣ .

[٢] – انظر الملطي : التنبيه والرد ص ٥٥ .

[٣] – انظر ابن عساكر تاريخ دمشق ٦٠ / ١٢٢ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ٩ / ٦٤١ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٥١.

[٤] – انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ١٥٣

[٥] – انظر الجويني : الشامل ص ٢٨٨ .

[٦] – انظر د. حسن الشافعي : الآمدي وآراؤه الكلامية ص ٣٢٧ .

[٧] – ابن تيمية : منهاج السنة ٢ / ٦١٨ .

ماء مرور لا من الأرض ولا من سماء ، خلق خيلاً فأجراها فعرقت ، فخلق نفسه من ذلك العرق [1] "

وهذا الحديث المكذوب لا يضعه مسلم ، بل لا يضعه عاقل ، وإنما يفتريه زنديق أفاك ولسنا بحاجة لبيان كذبه ، إذ مجرد حكايته تغني عن إفساده وإبطاله ، وكما يقول الذهبي " وهذا خبر مقطوع بوضعه ، لعن الله واضعه ومعتقده ، مع أنه شيء مستحيل في العقول بالبديهة "[2]

ومما يقارب الحديث السابق في الوضع والشناعة حديث " رأيت ربى بمنى يوم النفر على جمل أورق عليه جبة صوف أمام الناس "[3] " وحديث " لما أسري بي إلى السماء رأيت ربي عزَّ وجلَّ بيني وبينه حجاب بارز ، فرأيت كل شيء منه حتى رأيت تاجاً مخوصاً من لؤلؤ "[4] وحديث " خلقت الملائكة من نور الذراعين والصدر "[5] وحديث " رأيت ربى عز وجل على جمل أحمر عليه إزار ، وهو يقول: قد سمحت ، قد غفرت إلا المظالم ، فإذا كانت ليلة المزدلفة يصعد إلى السماء الدنيا وتنصرف الناس إلى منى "[6]

وفي ظني أنه لا يوجد أحد يطالع تلك الأكاذيب ثم يشك في أن واضعها زنديق أثيم كان يقصد إفساد عقائد المسلمين ، وجعلهم هزئا وأضحوكة بين الأمم من جهة ، وصد عقلاء البشر عن الدخول في هذا الدين من جهة أخرى ، إذ كيف لمن لديه مسكة من تمييز أو إدراك أن يقبل اعتقادات قبيحة تسيء للرب الخالق مثل هذه الإساءة الشنيعة .

---

[1] – انظر ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ٦٤ ، وابن تيمية : درء التعارض ١ / ١٤٨ ، والسيوطي : اللآلئ المصنوعة ١ / ١١، وابن عراق : تنزيه الشريعة ١ / ١٣٤ .

[2] – الذهبي : تاريخ الإسلام ٣٠ / ١٢٨ .

[3] – الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ / ٢٦٤ ، وابن عراق : تنزيه الشريعة ١ / ١٤٦ ، وملا علي القاري : الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ١ / ٢٠٤ ، وانظر أيضا ابن تيمية : درء التعارض ٧ / ٩٣ ، ومنهاج السنة النبوية ٢ / ٥٢٩ .

[4] – الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٠ / ١٣٤ ، و ابن الجوزي : الموضوعات ١ / ٧٢ ، والسيوطي : اللآلئ المصنوعة ١ / ٢٠ .

[5] – انظر عبد الله بن الإمام أحمد : السنة ٢ / ٤٧٥ ، والبيهقي : الأسماء والصفات ٢ / ٢٨٥ .

[6] – انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ١٣ / ١٤٥ ، وابن الجوزي : الموضوعات ١ / ١٨٠ .

وقد نبه كل من ابن قتيبة ، وابن الجوزي ، والزركشي ، والشعراني إلى أن غرض الزنادقة من وضع تلك الأحاديث إفساد الشريعة ، وإيقاع الشك فيها في قلوب العلوم ، والتلاعب بالدين وتهجينه وتنفير العقلاء منه بدس مثل هذه الأحاديث المستشنعة والمستحيلة ١ ومن أغراضهم أيضا كما أشار لذلك ابن عساكر التشنيع على أصحاب الحديث ، وإفقاد الثقة فيهم وفي كتبهم وما تضمنته من مرويات[٢] .

ولكن للأسف الشديد فإن رواية الموضوعات وإشاعتها لم تقتصر على الزنادقة وأعداء الإسلام المجاهرين بالعداوة ، بل امتدت لنفر من المنتسبين لعلم الحديث ذكروها في كتبهم وساقوها بأسانيدهم مما أحدث إشكالا وبلبلة ، وفتح الباب أمام خصومهم لوسمهم باتهامات خطيرة من قبيل التجسيم والتشبيه والحشو ومشابهة اليهود والنصارى .

ومن إنصاف ابن تيمية رحمه الله نقده الواضح لهؤلاء النفر ، وإقراره بوجود نفر " من المنتسبين إلى السنة المصنفين فيها ، لا يعرفون الحديث ولا يفقهون معناه ، بل تجد الرجل الكبير منهم ينصف كتابا في أخبار الصفات أو في إبطال تأويل أخبار الصفات ويذكر فيه الأحاديث الموضوعة مقرونة بالأحاديث الصحيحة المتلقاه بالقبول ، ويجعل القول في الجميع واحدا ، وقد رأيت غير واحد من المصنفين في السنة على مذهب أهل الحديث من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم من الصوفية وأهل الحديث وأهل الكلام منهم يحتجون في أصول الدين بأحاديث لا يجوز أن يعتمد عليها في فضائل الأعمال، فضلا عن مسألة فقه فضلا عن أصول الدين "[٣] .

وقد أشرنا من قبل إلى كتاب أبي يعلى الحنبلي إبطال التأويلات وما تضمنه من أحاديث موضوعة ، وثمة كتب أخرى لعلماء مشاهير لم تخل من إيراد بعض الأحاديث الضعيفة أو

---

[١] – انظر ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ص ٢٧٩ ، وابن الجوزي : الموضوعات ١ / ١٥ ، والزركشي : البحر المحيط ٣ / ٣١٨ ، والشعراني : اليواقيت والجواهر ٢ / ٥١ ، وانظر أيضا د. مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٠١ .

[٢] – انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ١٣ / ١٤٥ .

[٣] – ابن تيمية : الصفدية ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

الموضوعة [1] ، ولعل عذرهم أنهم ساقوها بالأسانيد ، والقاعدة المقررة عندهم أن من أسند لك فقد أحالك .

لكن يبقى من الإنصاف إن نقول إن ذلك وحده لا يكفي ولا يشفي ، ولا يعتبر عذرا يرفع التبعة كلها ، ومجال العقيدة مجال حساس وخطير لا يصلح فيه إيراد ما تهافت سنده ومتنه وإذا كان في زمانهم من يحسن النظر في الأسانيد والتفرقة بين ما صح وما لا يصح ، فقد خلف من بعدهم خلوف يصدقون بكل ما يروى ، ويعتقدون بكل ما وجدوه مزبورا في الكتب لا سيما إن كان مؤلفها ممن يشار إليه بالبنان .

وفي ظني أن جانب رد الفعل الذي أشرنا إليه من قبل كان له أثر كبير في صنيع هؤلاء النفر من المحدثين ، حيث هالهم ما قام به المتكلمون من الجهمية والمعتزلة وغيرهم من التجرؤ على نصوص السنة ، وعدم التهيب من ردها ، والطعن فيما صح من أحاديثها ، فقاموا بالرد على هذا المسلك المعيب ، غير أنهم لم يقفوا عند حد التوسط وجانب الاعتدال ولم يقتصروا على إيراد الصحيح والثابت وإنما جمعوا كل ما وقفوا عليه دون تمييز كاف بين ما ثبت وما لم يثبت ، ثم غلا بعضهم فأوجب اعتقاد كل ما ورد في المرويات حتى لو لم تصح ، وأنكر أشد الإنكار على من لم يوافقه في الرأي راميا إياه بالتجهم والتعطيل ، ولا شك أن هذا المسلك غير سديد ، وهو منهج مباين لسبيل الأئمة المحققين من علماء الحديث الأثبات الذين اقتصروا على ما صح وحده ووقفوا عنده ، كما اشتد نكيرهم على رواة المناكير والموضوعات .

وقد أحسن ابن قدامة حينما أصل لقاعدة منهجية مهمة في هذا الباب فقال " وأما الأحاديث الموضوعة التي وضعتها الزنادقة ليلبسوا بها على أهل الإسلام ، أو الأحاديث الضعيفة إما لضعف رواتها أو جهالتهم أو لعلة فيها ، فلا يجوز أن يقال بها ولا اعتقاد ما فيها ، بل وجودها كعدمها "[2] ولم يقتصر ابن قدامة على ما سبق ، بل جعل من " أثبت لله تعالى صفة بشيء من هذه الأحاديث الموضوعة هو أشد حالا ممن تأول الأخبار الصحيحة ، ودين الله تعالى هو بين الغالي فيه والمقصر عنه "[3]

[1] – مثل كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ، والرد على الجهمية ، والرد على المريسي لعثمان بن سعيد الدارمي وغيرها .

[2] – ابن قدامة : ذم التأويل ص٤٥ ، تحقيق بدر البدر .

[3] – المصدر السابق ص ٤٦ .

٣ – رواية الإسرائيليات

وليس بوسعنا هنا أن نسترسل في الكلام عن الإسرائيليات ، وكيف نشأت ، ومتى نشأت ، وما أبرز الكتب التي اكتظت بها ، حيث تكفلت بذلك دراسات عديدة ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن الإسرائيليات يراد بها كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما[١] .

وقد عاني تراث المسلمين ، وفكرهم ، وعلومهم المختلفة من الآثار السيئة الكثيرة التي ترتبت على رواية الإسرائيليات ، وانتشارها في عدد غير قليل من كتب التفسير والتاريخ وقصص الأنبياء .

ومن تلك الآثار أنها شوهت صفاء العقيدة بما انطوت عليه من تشبيه وتجسيم لله ، ووصفه بما لا يليق بجلاله ، وبما فيها من نفي العصمة عن الأنبياء والمرسلين ، وتصويرهم بحال مزرية لا تليق بمكانتهم العظيمة ، ومن مفاسدها أيضا أنها تصور الإسلام في صورة دين خرافي يخالف العقل ويعارضه ، ويسوق ترهات وأباطيل لا أساس لها ، مما يفتح بابا للطعن فيه من أعداء الإسلام ، كما أنها تكاد تذهب الثقة لدى بعض الناس في جماعة من علماء السلف الذين نسبت إليهم تلك الإسرائيليات عنهم ، ثم إنها صرفت الناس عن المقصد الأساسي الذي أنزل القرآن من أجلهم وشغلتهم بأمور لا طائل من ورائها ، وتفاصيل لا يعدو أن يكون الاشتغال بها عبثا محضا وتضييعا للوقت فيما لا فائدة فيه [٢].

والذي يعنينا من الكلام عن الإسرائيليات هنا أنها تعد مظهرا بارزا من مظاهر الحشو ولا سيما أنها في غالب الأحوال لا تخلو من تضمنها لخرافات وأساطير ، أو تشبيها و تجسيما ووصفا لله تعالى بالنقائص أو مشابهة المخلوقين ، أو رواية ما يطعن في عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وكل ذلك مما يخدش في صحة العقيدة وسلامتها .

---

[١] – انظر د. الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ١٣ .

[٢] – انظر د. الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ٢٩ – ٣٤ ، ورمزي نعناعة : الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٤٢٨ .

وثمة أمثلة كثيرة في هذا الصدد ، ومنها خرافة جبل قاف ، وهو جبل تزعم الروايات الإسرائيلية أن الله خلق من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له : " قاف" ، سماء الدنيا مرفوعة عليه ، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أيضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، واستمر على هذا حتى عد سبع أرضين ، وسبعة أبحر وسبعة أجبل ، وسبع سماوات ، كما تزعم أن جبل قاف هذا ، محيط بالعالم ، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فيحرك العرق الذي يلي تلك القرية ، فيزلزلها ، ويحركها ، ثم تحرك القرية دون القرية[١].

ولا يخفى بطلان هذه الأساطير كلها ، وتناقضها مع النقل والعقل والحس وما انتهت إليه حقائق العلم القطعية ، وقد أجاد ابن كثير رحمه الله حينما حكم على كل ما روي في هذا الصدد بأنه من خرافات بني إسرائيل و من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم[٢] .

كذلك أورد بعض المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى (إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ)(سورة المائدة : ٢٢) كثيرًا من الروايات في صفة هؤلاء القوم ، وعظم أجسادهم ، مما لا يتَّفق وسنة الله في خلقه ، ويخالف ما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، ومنها أن عنقود عنبهم لا يحمله إلا خمسة أنفس ، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس ، وأن منهم رجلا يسمى عوج بن عوق ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وأنه كان يمسك الحوت ، فيشويه في عين الشمس ، وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه ، وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح ، وأن موسى كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع ، ووثب في الهواء عشرة أذرع ، فأصاب كعب عوج فقتله[٣] ، فكان جسرًا لأهل النيل سنة إلى نحو ذلك من الخرافات ، والأباطيل التي تصادم العقل والنقل ، وتخالف سنن الله في الخليقة[٤] ، وقد أصاب ابن القيم حينما عقب على تلك المرويات بقوله "

---

١ – انظر تفسير الثعالبي ٩ / ٩٣ ، والدر المنثور للسيوطي ٥ / ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ود.أبو شهبة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٣٠٢ .

٢ – تفسير ابن كثير ١ / ٣٢ .

٣ – انظر تفسير الثعالبي ٤ / ٣٦ ، وتفسير البغوي ٣ / ٢٩ ، وتفسير أبي السعود ٣ / ١٤ ، وتفسير الخازن ٢ / ٢٥ .

٤ – انظر د.أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ١٨٥.

وليس العجب من جرأة مثل هذا الكذاب على الله ، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ، ولا يبين أمره "[1]

ومن الإسرائيليات التي تتعارض مع عصمة الأنبياء ما حكاه بعض المفسرين في قصة افتتان داود عليه السلام بزوجة قائد جيشه ، ورؤيتها وهي تستحم وإعجابه بها ، ثم أمره بأن يجعل زوجها في مقدمة الجيش حتى يقتل ويخلو الجو لداود كي يتزوج المرأة[2] وكل ذلك من أباطيل الروايات وكذبها ، وهو اقتباس فج مما تضمنته التوراة[3] من طعن في الأنبياء وإظهارهم بصورة لا تليق بعوام المؤمنين ، فضلا عن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم .

وتبقى أمثلة عديدة للإسرائيليات لا يتسع المجال لذكرها[4] ، لكن من المهم أن ننبه إلى مأخذ منهجي وقع فيه بعض المعاصرين ، وهو توسعهم في الحكم بالوضع على عدد من الأحاديث الصحيحة والثابتة ، والقول بأنها من الإسرائيليات إذا رأوا في متنها إشكالا ما ، كأن تتضمن أمرا غيبيا يصعب على بعض العقول استيعابه ، أو تتضمن وصفا لله يوهم ظاهره مشابهة المخلوقين .

وقد تكرر هذا المسلك لدى د.علي سامي النشار في كتابه " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" حيث حكم على حديث خلق آدم على صورة الرحمن[5] ، وحديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[6] ،وحديث نزول الله في ثلث الليل الآخر[7] بأنها من الإسرائيليات ، مع أن هذه الأحاديث الثلاثة وردت في الصحيحين أو أحدهما ،ومذهب السلف معروف في إمرار تلك

---

[1] – ابن القيم : المنار المنيف ص ٧٧ ، وانظر أيضا نقد ابن كثير لتلك القصة في تفسيره ٣ / ٧٦ .

[2] – انظر تفسير الطبري ٢١ / ١٨١ ، وتفسير البغوي ٧ / ٨٢ ، والدر المنثور للسيوطي ٧ / ١٥٨ ، ود.أبو شهبة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٢٦٤ .

[3] – انظر سفر صموئيل الثاني (١١ : ٢ – ٢٧)

[4] – وانظر الكثير منها في كتاب د. الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، ود.أبو شهبة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير.

[5] –انظر د. النشار : نشأة الفكر ١ / ٢٨٨.

[6] – المصدر السابق ١ / ٢٨٨

[7] – المصدر السابق ٣ / ٢٩٣، وانظر د.محمد سعيد القحطاني : الإعلام بنقد كتاب نشأة الفكر الفلسفي ص ٢١ – ٢٣ .

الأحاديث والإيمان بها دون تشبيه أو تمثيل لصفات الخالق بصفات المخلوقين ، وحتى من أولها من الأشاعرة وغيرهم لم يحكم عليها بأنها من الإسرائيليات .

وفي ختام حديثنا عن حشوية المحدثين والمفسرين نخلص إلى أن الحشو لم يكن سمة عامة لدى سائر المحدثين أو المفسرين من الحنابلة أو غيرهم ، وإنما ظهر لدى بعض المنتسبين إليهم ، كما ظهر لدى غيرهم من الطوائف ، مما يؤكد على خطأ من قصر الحشو على المحدثين وحدهم ، متناسيا أن المحدثين أنفسهم نقدوا هؤلاء النفر نقدا شديدا ، وأخرجوهم من عداد أهل الفن الثقات الأثبات ، مما يجعل من تعميم الاتهام للمحدثين جميعا بالحشو نوعا من التعسف وعدم الإنصاف ، والبعد عن الموضوعية المطلوبة في كل بحث علمي .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله أولا وآخرا .

قائمة المصادر والمراجع

الآمدي

– الإحكام في أصول الأحكام ، دار الحديث ، بدون تاريخ.

– غاية المرام في علم الكلام، تحقيق د. حسن الشافعي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ،١٣٩١هـ–١٩٧١م.

د٠ أبو الوفا التفتازاني

– علم الكلام وبعض مشكلاته ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩م .

أحمد بن إبراهيم بن عيسى

– توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، المكتب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦ هـ .

أحمد أمين

– ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة العاشرة ، بدون تاريخ ٠

د.أحمد بن عبد العزيز القصير

– عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية ، مكتبة الرشد ، الأولى ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

د.أحمد قوشتي

– خصائص الشخصية المصرية وأثرها في ظهور الاتجاهات الكلامية وانتشارها ، دار الهاني ٢٠٠٥ م .

أحمد بن المبارك السلجماسي :

– الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م .

الأحمد نكري

– دستور العلماء ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .
إدريس محمود
–مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ، مكتبة الرشد ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٦ هـ– ٢٠٠٥ م .
الإسفراييني
– التبصير في الدين ، وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار ١٣٥٩هـ–١٩٤٠م.
الأشعري
– مقالات الإسلاميين ، واختلاف المصلين ، تحقيق هلموت ريتر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة .
ابن أمير الحاج
– التقرير والتحبير، در الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م.
آنا ماري شيمل
– رمزية الحروف في المصادر الصوفية ضمن كتاب الأبعاد الصوفية وتاريخ الإسلام ، ترجمة محمد إسماعيل السيد ، ورضا حامد قطب ، منشورات الجمل ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م .
الإيجي
– المواقف في علم الكلام، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، بدون تاريخ.
ابن بابويه
– كمال الدين وتمام النعمة ، مؤسسة النشر الاسلامي ، قم ، ١٤٠٥ هـ
البروجردي
– جامع أحاديث الشيعة ، المطبعة العلمية ، قم ، ١٣٩٩ هـ .
البيروني
– تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م .
ابن تيمية
– مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، مكتبة ابن قتيبة، الكويت، بدون تاريخ.
– درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ–١٩٨١م.

– الرد على المنطقيين، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان ، ١٩٧٦م .
– منهاج السنة النبوية، تحقيق: د محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
– الصفدية تحقيق : د. محمد رشاد سالم الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ .
– بغية المرتاد ، تحقيق : د. موسى سليمان الدويش ، مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .

د.جابر إدريس

– مقالة التشبيه ، وموقف أهل السنة منها ، أضواء السلف، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م .

الجرجاني

– التعريفات ، تحقيق د. عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد، القاهرة ، ١٩٩١م.

جمال الدين القاسمي

– تاريخ الجهمية والمعتزلة ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

ابن الجوزي

– المنتظم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٨ هـ .
– زاد المسير ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ هـ .

الجويني

– الشامل في أصول الدين ، تحقيق د. النشار ود. فيصل عون ود.سهير مختار ، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٩ م .

الجيلاني

–الغنية لطالبي طريق الحق ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

ابن حجر

– لسان الميزان ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

ابن أبي الحديد

– شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٩ م .

الحر العاملي

– وسائل الشيعة ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، مهر ، قم الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ .

ابن حزم

– الإحكام في أصول الأحكام ، دار الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م .

– الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ، ود. محمد إبراهيم نصر ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ.

د. حسن الشافعي

– الآمدي ، وآراؤه الكلامية ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م ٠

– المدخل إلى دراسة علم الكلام ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١م ٠

الحلاج

–الأعمال الكاملة ، جمع قاسم محمد عباس ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

د. خالد كبير علال

– مدرسة الكذابين في رواية التاريخ ، دار البلاغ الجزائر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

الخوئي

– معجم رجال الحديث ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

الخوميني

– كشف الأسرار ، ترجمه عن الفارسية د. محمد البنداري ، دار عمار للنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .

الذهبي

– سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ .

– تاريخ الإسلام تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى ، دار الكتاب العربي لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

الرازي

– اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ومعه المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، تأليف عبد الرءوف سعد ، ومصطفى الهواري ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م .

– أساس التقديس ، تحقيق د. أحمد حجازي السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .

– معالم أصول الدين، راجعه وقدم له : طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون تاريخ.

– عصمة الأنبياء، مؤسسة الزغبي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧هـ–١٩٧٧م.

– التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م .

الرامهرمزي

– المحدث الفاصل ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ هـ.

ابن رشد

– مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم وتحقيق: د.محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٥م .

رمزي نعناعة

– الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م .

الزركشي

– البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة ، الغردقة، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ–١٩٩٢م

الزمخشري

– الكشاف ، تحقيق عبد الرزاق المهدي دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

زهدي جار الله

–المعتزلة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

سارة بنت عبد المحسن

– نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام ، دار المنارة جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

السبكي

–طبقات الشافعية الكبرى ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ

– السيف الصقيل في الرد على نونية ابن زفيل، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، مطبعة السعادة بمصر ١٣٥٦هـ–١٩٣٧م.

د . سفر الحوالي

– ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، مكتبة الطيب ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ– ١٩٩٧م .

أبو سعيد النيسابوري

–الغنية في أصول الدين ، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م .

سلامة العزامي :

– فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الإنسان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان .

د.سليمان الغصن

– موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، عرضًا ونقدًا، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م.

د. سهير مختار

–التجسيم عند المسلمين ، مذهب الكرامية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ م .

السيوطي

– تدريب الراوي تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

– اللآلئ المصنوعة ، تحقيق : أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م ،

الشعراني :

– الطبقات الكبرى ، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ–١٩٩٧م .

الشهرستاني

– الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار صعب، بيروت ،١٤٠٦هـ–١٩٨٦م .

الشوكاني

– البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، تحقيق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .

الصدوق

– الاعتقادات في دين الإمامية ، تحقيق عصام عبد السيد ، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

– من لا يحضره الفقيه ، تحقيق وتصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة .

– التوحيد ، تحقيق وتصحيح ، وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة .

أبو طالب المكي

-قوت القلوب تحقيق د. عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م .

الطبري

– جامع البيان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

الطوسي

– الاستبصار ، تحقيق وتعليق السيد حسن الموسوي الخرسان ، دار الكتب الإسلامية طهران ، الطبعة الرابعة ، ١٣٦٣ ش .

– تهذيب الأحكام ، تحقيق وتعليق السيد حسن الموسوي الخرسان ، دار الكتب الإسلامية طهران ، الطبعة الثالثة ، ١٣٦٤ ش .

الطوسي

– اللمع ، تحقيق د. عبد الحليم محمود ، وطه سرور ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م .

–عاطف شكري أبو عوض

– الزندقة والزنادقة ، دار الفكر الأردن ، عمان ، بدون تاريخ

–عباس بن منصور السكسكي

– البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، تحقيق د.بسام العموش ، مكتبة المنار الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م .

د.عبد الله بن صالح الغصن

– دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ .

عبد الله نعمة

– هشام بن الحكم رائد الحركة الكلامية في الإسلام وأستاذ القرن الثاني في الكلام والمناظرة دار الفكر اللبناني ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م ،

– قولة « جسم لا كالأجسام » بين موقف هشام بن الحكم و مواقف سائر أهل الكلام لمحمد رضا الحسيني ، مجلة تراثنا العدد الثاني ، السنة الخامسة ، ربيع الثاني ١٤١٠ هـ .

عبد الجبار الهمذاني

– فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .

عبد الرحمن بدوي

– تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ، وكالة المطبوعات الكويت الطبعة الأولى ، ١٩٧٥ م .

– شطحات الصوفية ، وكالة المطبوعات ، الكويت .

د. عبد الرحمن بن صالح المحمود

– موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م .

د.عبد الرحمن الفريوائي

– شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه ، دار العاصمة للنشر والتوزيع .

عبد الرحمن اللويحق

– الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ ه – ١٩٩٢ م .

عبد الرحمن الوكيل

– هذه هي الصوفية ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٥ ه – ١٩٥٥ م ٠

عبد العزيز سيد الأهل

– التصوف الإسلامي ، أصوله ومحاذيره ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٨٠ م ٠

عبد القادر بن بدران

– منادمة الأطلال ، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٥م .

د. عبد القادر محمود

– الفلسفة الصوفية ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ م .

عبد القاهر البغدادي

– أصول الدين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ،١٤١٠هـ–١٩٨١م .

– الفَرْق بين الفِرَق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، بدون تاريخ.

د. عبد اللطيف حفظي

– تأثير المعتزلة في الخوارج و الشيعة ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٢١ ه – ٢٠٠٠ م .

العجلوني

–كشف الخفاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ م – ١٤٠٨ ه

ابن عربي

– الفتوحات المكية ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- فصوص الحكم ، تعليق د.أبو العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- شق الجيب بعلم الغيب ضمن رسائل ابن عربي ، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح ، مؤسسة الانتشار العربي .

ابن عساكر

-تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعري ، عني بنشره القدسي ، دمشق ، ١٣٤٧ هـ .

العطار

- حاشية العطار على شرح جمع الجوامع للسبكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان بدون تاريخ.

د. على سامي النشار

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، ١٩٨١م.

د. على عبد الفتاح المغربي

- الفرق الكلامية الإسلامية ، مدخل ودراسة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦م.

-د.عمر فلاتة

- الوضع في الحديث ، مكتبة الغزالي ، دمشق ، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.

عمر كحالة

-معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

الغزالي

- إحياء علوم الدين، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ، بدون تاريخ.
- المستصفى في علم الأصول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م .

ابن فارس

- معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت بدون تاريخ.

الفيروزآبادي

- القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

د. فيصل عون

-علم الكلام ومدارسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ .
-التصوف الإسلامي الطريق والرجال ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٣ م .

الفيومي

- المصباح المنير ، المكتبة العلمية ، بيروت .
القاسمي
-الجرح والتعديل ، تحقيق محمد عبد الحكيم القاضي ، دار الحديث ، ١٩٨٨ م .
ابن قتيبة
- تأويل مختلف الحديث، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .
- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٤٩هـ.
ابن قدامة
- ذم التأويل ، تحقيق بدر البدر ، دار الفتح ، الشارقة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .
القرطبي
- الجامع لأحكام القرآن ، دار عالم الكتب ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .
ابن القيم
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، تحقيق د .علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .
- المنار المنيف ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ .
- مدارج السالكين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ .
- طريق الهجرتين ، دار ابن القيم ، الدمام ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .
ابن كثير
- تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .
- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت .
الكلاباذي
-التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .
الكليني
- الكافي ، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، الطبعة الخامسة ، ١٣٦٣ ش .

المجلسي

– بحار الأنوار ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣ – ١٩٨٣ م .

د٠ محمد الأنور السنهوتي

– دراسات نقدية في مذاهب الفرق الكلامية ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩١ م ٠

د. محمد البهي

– الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ م .

د. محمد حسين الذهبي

–الإسرائيليات في التفسير والحديث ، مكتبة وهبة ، الطبعة الرابعة ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

د.محمد خليل هراس

– باعث النهضة السلفية ابن تيمية السلفي، نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات، مكتبة الصحابة بطنطا، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ .

محمد زاهد الكوثري

– نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة، مكتبة القدسي، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ–١٩٨٠م.

– مقالات الكوثري، بدون بيانات نشر.

د.محمد سعيد القحطاني

– الإعلام بنقد كتاب نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

محمد صالح الزركان

– فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ، دار الثقافة للطبع والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

د. محمد صالح السيد

–عمرو بن عبيد وآراؤه الكلامية ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٥ م .

د ٠ محمد عبد الله الشرقاوي

– بحوث في مقارنة الأديان ، دار الفكر العربي ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ٠

–موقف الصوفية من العقل حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ، ١٩٧٨م .

محمد العبده

– المعتزلة بين القديم والحديث ، دار الأرقم ، برمنجهام ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧ م .

د. محمد لوح

– تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ، دار ابن القيم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م .

د. محمد علي البار

– الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .

د . محمد محمدأبو شهبة

–الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، مكتبة السنة ، الطبعة الرابعة ١٤٠٨ هـ .

د. محمد مصطفى حلمي

– الحياة الروحية في الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ م .

محمد ناصر الدين الألباني

– نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

محمود عبد الرؤوف القاسم

– الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، دار الصحابة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .

محمود المراكبي

– ظاهر الدين وباطنه ، ١٩٩٦ م .

د/ مصطفى السباعي

– السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

المفيد

– أوائل المقالات ، تحقيق الشيخ إبراهيم الأنصاري ، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ .

– تصحيح اعتقادات الإمامية دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

الملطي

– التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، نشرة السيد عزت العطار الحسيني ، ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩م ٠

المناوي

–التوقيف على مهمات التعاريف ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ تحقيق : د. محمد رضوان الداية

منصور محمد عويس

– ابن تيمية ليس سلفيا ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م.

ابن منظور

– لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى .

الميرزا النوري

– مستدرك الوسائل ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث .

د ٠ ناصر العقل :

– دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، دار إشبيليا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م ٠

د. ناصر القفاري

– أصول مذهب الشيعة الإمامية عرض ونقد ، الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م .

ابن النديم

– الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨.

نشوان الحميري :

– الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، دار آزال للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ م .

النعيمي

– الدارس في تاريخ المدارس ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ. ١٩٩٠ م .

النوبختي

– فرق الشيعة ، تحقيق د. عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م .

النووي

– شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ،١٣٩٢هـ .

نيكلسون

– الصوفية في الإسلام ، ترجمة نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢ م ٠

ابن الوزير اليمني :

- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم – صلى الله عليه وسلم –اعتنى به علي بن محمد العمران ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع .

الهجويري

- كشف المحجوب ، دراسة وترجمة وتعليق د.إسعاد عبد الهادي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٧٤ م .

أبو يعلى

- إبطال التأويلات ، تحقيق محمد بن حمد النجدي ، دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع .